امرأة تكسر الظهر

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

خطيب بدله

٧
سلسلة الأدب الساخر

الينابيع

امرأة تكسر الظهر

حقوق الطبع محفوظة
١٩٩٤

دار الينابيع للنشر والتوزيع

دمشق ص. ب ٦٣٤٨

هـ: ٤٢٨٤٦٨

٣٣٢٤٩١٤

التوزيع في مصر:

دار الثقافة الجديدة

٣٢ ش صبري أبو علم - القاهرة

هـ: ٣٩٢٢٨٨٠

التوزيع في لبنان:

دار مختارات.ص.ب:٦٠٢١٦ بيروت (الزلقا)

هـ: ٨٩٠٣٣٣ - ٨٩٨١٩٤

تصميم الغلاف: د.غسان السباعي

امرأة تكسر الظهر

خطيب بدلـة

امرأة تكسر الظهر

احتار في أمره عندما طلبوا منه أن يصفها لهم ، تأتأ وفأفأ وهمهم ، ثم ضب لسانه وسكت . كان يريد أن يدفع جُمَلاً متلاحقة في وصف شعرها وعينيها واستدارة وجهها وأنفها وفمها وذقنها وعنقها وخصرها وقدها ..و .. لكنه عاد لا يذكر أيا من هذه التفاصيل ، للأسف ، وعندما حاول الكلام من جديد وجد نفسه يقول :

ـ إنها امرأة تكسر الظهر !

وأغمض عينيه نصف اغماض ، وأرسلهما في الفضاء عبر النافذة على يساره ، ثم قال كمن يحدث نفسه :

ـ أغلبُ الظن أن لها ساحة من جاذبية تشبه ساحة المغناطيس وربما أقوى ، لأنني ، إذ أطلتْ هي من منعطف الشارع أحسست بجسدي يرتجُّ ، وبركبي ترقص ، ووجدتني أتراكم وأهبط الى الأسفل يمشي فيَّ تيار عريض تجمع عند منتهى عموديَ الفقري ، وضرب ، فأحدث فيه ما يشبه صعقة الكهرباء التقطت أذناي على إثر ذلك صوتاً يشبه صوت تكسر الخبز اليابس ، فعرفت وقتها أن ظهري قد انكسر ، وغبت عن الوجود ، وعندما صحوت وجدت نفسي ملقيا على هذا السرير في جوف هذه القوقعة البيضاء القاسية ، وأنتم حولي ، وهؤلاء الأطباء والممرضات والبشر .

كاميرا الأحلام الخفية

كاميرا الأحلام الخفية تمضي الليل وبعض الصباح في منزل السيد «مسعود أبي فريج الوسيم» . مهمتها : رصد حياته في ليلة تسلمه قرار تعيينه مديراً للشركة (س) . الرجل المرح الذي أوكل للكاميرا هذه المهمة اعترف لها بأن في هذا العمل حقارة ، فالناس تكفيهم الأعين البصاصة التي ما تنفك تسعى للإيغال في صدورهم ورؤسهم (العين البصاصة تبلى برصاصة) .. ثم سوغ عمله بقوله : ولكن ، لاتثريب علينا ما دامت حصيلة عملك سوف تصاغ عملاً أدبياً الأسماءُ والمواضع فيه مموهة .

* * *

الكاميرا تبتعد عن باب غرفة النوم من باب الأدب ، ولكنها لاحظت مع ذلك ، بفضولها الفطري ، أن غرفة النوم لم تشهد في تلك الليلة أية حركة ذات طبيعة زوجية ، واستغربت ذلك قائلة : «إذا كان الناس المتزوجون يتحركون في غرف النوم في المناسبات ، فها هي مناسبة عظيمة : مسعود أصبح مديراً للشركة (س) وهذا ، بالنسبة إليه ، حلم كبير تحقق ، أفلا تفرح زوجته معه ؟»

وابتعدت كذلك عن باب المرحاض . قال لها الرجل المرح : «انتبهي ، فنحن بصدد كتابة عمل أدبي نعرضه على الناس ، ومعظم الناس يرون أن الأدب من

مرادفات التهذيب . تصوري ! ذات مرة كنت أقرأ قصة قصيرة في المركز الثقافي بمدينة (ر) ، وكان في القصة دلال عقارات يشرح لزبونه مواصفات البيت الذي يحاول بيعه له . عندما وصل الدلال الى باب المرحاض ، وقال للزبون (وهذا مرحاض !) نط مدير المركز الثقافي من مجلسه وكانك فركت استه بالنشادر أو بمسحوق الفليفلة الحمراء . لماذا نط ، هل تعرفين ؟ لقد خُدش حياؤه ، المسكين ، مع أنه رجل محفف !»

سألت الكاميرا بدهشة : محفف ؟

قال الرجل المرح : أعني أنه ناعم زيادة عن حد النعومة المقبولة لدى الرجال ، أمرد إلا من بضع شعرات في أسفل ذقنه حلقها فلم يظهر لها أثر ، حاجباه مدوزنان على الميلمتر ، مثل حواجب الرقاصات ، وعقدة الكرافة تتوسط ياقة القميص كأنما خلقت ، يوم خلقت ، ضمن هذه الياقة .

قالت الكاميرا وقد زادت دهشتها : كيف يخجل المرء من ذكر المرحاض وهو يدخله ثلاث مرات في اليوم على الأقل ؟

قال الرجل المرح : ليس كل الناس يدخلون المرحاضَ . ثمة أناس مسدودون تماماً ، منهم مدير مركز (ر) الثقافي ، ومنهم زميل لنا صحفي أرسل له زميل آخر قصة بعنوان «المرحاض» فبدل له العنوان ليصبح «مقرفصاً تحت السقف» هذا مع أن المرحاض الذي في القصة لاسقف له .

* * *

الكاميرا تبدأ العمل بالتوجه الى لوحة صغيرة كتب عليها :

كاميرا الأحلام الخفية .

ـ داخلي/ نهاري .

ـ منزل مسعود أبي فريج الوسيم .

ثم تنتقل الى ساعة جدارية في غرفة الجلوس تشير الى السابعة والنصف وثلاث دقائق ، ثم الى منصة صغيرة عليها فنجان قهوة واحد تنبعث منه رائحة عذبة . تنتشي الكاميرا بها وتقول لنفسها : ياه ، كم ستكون الحياة سخيفة لو لم يكن فيها شيء اسمه القهوة ! يا ليتني أستطيع أن أمد يدي فآخذ رشفة .

الكاميرا تحلل شخصية بطل القصة الذي تناول الفنجان ورشف منه بصوت مرتفع :

الاسم : مسعود أبي فريج الوسيم .

العمل الحالي : مدير (س)

الطول : يماثل أطول المديرين المنتشرين في أرجاءالبلاد .

الوزن : ...

حجم الرأس : ...

نسبة الوزن الى الطول ....

كلها نظامية ، بل وفيها أحياناً زيادة على مثيلاتها لدى المديرين الآخرين ، بالأخص مساحة الفك ومساحة صيوان الأذن .

علامات فارقة : له خالٌ على صفحات خدٍّ

كنقطة عنبر في صحن مرمر ..

«الله الله» تصرخ الكاميرا «ياليتني أستطيع إكمال أغنية ناظم الغزالي هذه بصوت مسموع .. والحاظ كأسياف تنادي على عاصي الهوى الله أكبر ..»

زُوم على يد مسعود يضع الفنجان ، ثم ، مسعود يقف ويهم بالخروج . الباب الخارجي يفتح بالمفتاح . تدخل نهاد (في الثلاثين ، على جمال أخاذ) تضحك بهيستريا تحمل على الظن بأنها سكرانة .

نهاد تهأهىء وتقدم خدها لمسعود :

نهاد : هأهأ .. صباح الخير حبيبي . مبكِّر اليوم ؟

مسعود يقبل نهاد فيصدر للقبلة صوتٌ

يشبه صوت حك قطعة ستيريبور بزجاج

النافذة .

مسعود : صباح الخير حبيبتي .

نهاد تقطع محاولته الخروج بعبارة

جعلتها ضائعة بين الفرح والاستخفاف .

نهاد : مبروك المنصب حبيبي . بس لاتظلم الناس

الله يرضى عليك ..هأهأ ..هي هي هي ...

مسعود يرسل عينيه في الفراغ . إنه يفهم الجانب المبطن من عبارة نهاد . يصطرع الاضطراب الخفيف الذي أشعله الجانب الهازىء من عبارة نهاد ، متمثلاً بقولها (لاتظلم الناس الله يرضى عليك !) ، مع الغبطة العارمة التي تسكن جواه منذ لحظة تسلمه قرار التعيين . الغبطة تنتصر على الاضطراب فتصفو النفس . عينا مسعود تضيقان بفعل التذكر .

فلاش باك الى الحلم الموغل في القدم الذي يلازمه من يوم انتسابه الى الجامعة . يومها التقى بزميله عدنان الجَمَّال في باحة الكلية ...

مسعود : أخي عدنان ، دخيلك ، عندما نتخرج من هذا الفرع أيش ممكن نصير ؟

عدنان : مدير دائرة ، وزير ...

يرتعش مسعود عندما يسمع كلمة وزير .

مسعود : وزير !.. ولك خلينا نصير مدير دائرة ونعمة من الله تعالى .

وحلم مسعود ، وكبر معه الحلم بالمبنى الكبير يرتفع في زاويته الأمامية العليا العلم الوطني . غرفة باردة صيفاً دافئة شتاءً .. كرسي من جلد أسود منجّد ترفعه وتخفضه وتدوره حسب مزاجك . آذن ضخم لاطىء عند باب الادارة مثل كلب أهل الكهف ينتظر إشارة منه ، أي من المدير ، أي من مسعود ، حتى يدخل متمايلاً (بسبب الدوالي في ساقيه !) ويقف على بعد مترين أو أكثر أمامه . « أمر أستاذ مسعود ؟» عندئذ يصبح من حقه ، حق مسعود ، أن يعطيه أتفه أمر يمكن أن يعطيه إنسان على وجه كوكب الأرض لانسان آخر ، ومن واجبه ، واجب الآذن أن يلبيه صاغراً . من الممكن جداً أن يقول له ، مثلاً : « رح الآن ، ما فيه شيء ، بعد شوي أنده لك !» فيروح مثل الذين كفروا . موظف خارج من عنده وآخر ينقر الباب كي يدخل وثالث ينتظر دوره ورابع وخامس ، وكلهم يدخلون وعقدة الذنب فاعلة فعلها في تنكيس رؤوسهم إلى الأسفل قليلاً أو كثيراً بحسب حجم الذنب الذي اقترفوه . وكل واحد منهم ، دون استثناء ، يجب أن

يقف في الوسط ، مقابل اللوحة العرضانية المدهونة باللكر ومكتوب عليها (المدير العام ، مسعود أبي فريج الوسيم) الموجهة إليه كالمدفعية ، أو كفوهة اللهب ، وكأنها تقول له : « فشكة في عينك ، أنا مدير عام غصباً عن أبيك ».. يقف منتظراً أن يتحنن عليه مسعود بابتسامة ، أو بكلمة « اقعد »، فما إن يسمعها حتى يهوي بثقله كله فوق أقرب كرسي . ولكن فشر ! خله يقف أحسن له . موظف داخل وموظف خارج مثل يوم القيامة (اللهم أسالك نفسي !)، وهو ، مسعود يتأفف : « العمى .. شوهاد .. لا أحد يرفع يداً عن رجل في هذه الشركة بدوني ؟ أنا مدير واحد ، فهل أتشقف إلى عشرين يحلون لكم مشاكلكم .. وقضايا الانتاج والتغليف والتسويق والعلاقات العامة من يشتغل بها ؟ واحد هرب من الدوام ، والثاني نظامي لا يهرب دون إذن،ولكن ابنته مريضة ، أبوه مات ، عمه مصاب بالجلطة ، زوجته طرحانة ، أخته جاي من سفر ... وهذا بردان وهداك مشوّب .. والتاني جاي يفسفس على زملائه : وت وت وت أستاذ مسعود ، حسن حكى عليك حكي ما أقدر أنقله إلك . شو قال لك ؟ أستاذ لا تحرجني . شو قال لك ولاه ؟ أستاذ قال لي : طز على مسعود . وإذا كان مدير يعني ؟.. اي والله لأطز على أمه ! طز علي أنا ؟» ويقف مسعود حائراً بين أن يشكر الموظف الواشي وبين أن يشتمه قائلاً له : « عيب عليك تفسفس على زملائك . أنت رجّال طويل عريض وشواربك تكبل بغلاً ، كيف بترضى على حالك تكون في هيك موقف ؟!» ولكنه لا يشتمه . يقول له « خلي ها الحكي بيننا . رح الآن إلى شغلك !» وتمتد يده وتكبس زر الجرس المثبت بالمنضدة ، فيتعومد أمامه رجل أهل الكهف : « ابعت لي حسن » يخرج الآذن ، يدخل حسن بعد قليل مذعوراً : « خير أستاذ مسعود ، خير إن شاء الله ؟».. « يا حسن أنت مقصر في شغلك وعما تغيب عن الدوام . هذا انذار أخير بعدها أنا أشوف شغلي معك .. مع السلامة !». حسن يتأتىء ، يريد أن يناقش مسعوداً في المسألة ، فيستدير مسعود بكرسيه يساراً ، ويتلقف سماعة أحد أجهزة الهاتف الكثيرة ويدير القرص : « الحكي مع حسن خلص . أي باب للحوار تفتحه لمرؤوسك يعني تخليك عن هيبتك . إياك يا مسعود ثم إياك . إياك والديمقراطية ، هذه خرّابة البيوت العامرة .. العمى ولك دولة طويلة

عريضة وفيها مصانع وكولخوزات وكومسمول وصواريخ نووية عابرة قارات كانت أمورها ماشية مثل الصلاة على النبي ، عملوا فيها شوية ديمقراطية خربت . مثل كاس بلور رقيق وسقط على الأرض .. طررش .. فرطت المسبحة والثلاثين مليون زلة اللي قتلوهم حتى ركزوا وضع الدولة كأنهم ما كانوا .. العمى ، من شوية ديمقراطية صاروا عشرين شقفة ، وصار في الكلب نهرة وفيهم الف .. بقي أنا يا سيدي منلا أنت بدي أعمل ديمقراطية وأنا قش هذا البَزُونْك حسن الذي قعد بين زملائه وفتح فمه مثل فم البلدوزر اللهم عافنا وقال : طز على مسعود ؟ اي والله لأطز على أمك وأم الديمقراطية يابن الحرام .. آلو نهاد ، شو طابخة اليوم ؟»

يخرج حسن ملوماً مدحوراً . مسعود يتخيل نفسه واقفاً وقفة شبيهة بوقفة جسن هذه : يريد أن يشرح لمديره الملابسات ومديره يدير وجهه . يقول في نفسه مع ابتسامة تخرج رغماً عنه : (اي والله صعبة !) ثم سرعان ما ينحّي الفكرة جانباً ويستأنف وصف حلمه فيضيف إلى غرفة الادارة مشجباً يقف على ساق واحدة ذات أربعة أظافر ليعلق عليها معطفه في الشتاء ، ومنشفة بيضاء . ثم ينتقل إلى نفسه فيسوي هندامه آنق من هندام مدير مركز (ر) الثقافي ، ويضيف إلى زاوية فمه غليوناً محشواً بتبغ (الكلان) ذي الرائحة العطرة التي لها ـ أغلب الظن ـ فعل يوقظ الشهوة الجنسية لدى النساء ، مثلما يفعل البخور والصندل والند .. « يجب أن أتدرب من الآن على تعليق الغليون بين أسناني في أثناء ما أتحدث مع الواقف قدامي ، أو الواقفة ..». ويستدرك : « الواقف فقط . في دائرتي لا توجد امرأة تقف !» لن تقف امرأة في دائرة السيد مسعود . يجب أن تجلس . ويا حبذا لو أنها تلف ساقاً على ساق وينشمر الثوب عن بعض الساقين ليشرع نظره بالتسلل بينهما مرغماً إياهما على التباعد . سوف يقول لها : « سلامات يا آنسة فدوى .. استريحي » فتقعد الآنسة بلطف ورقة ، لا كما قعد ذات مرة ذلك البغل « حمندوش » الذي هوى فوق الكنبة فلم يترك ذرة غبار عالقة بالكنبة أو على الأرض إلا وعججها حتى عاد مسعود لا يرى حمندوش وحمندوش لا يرى مسعوداً ، فصرفه وفتح النوافذ وشغل جهاز الشفط

والمروحة ، مستغرباً وجود كل هذه الغبار في مكتبه ، وفرض عقوبة بحق الآذن الضخم . هذه الآنسة فدوى كيف قعدت ؟ لم يشعر بها ، ولم يشعر بها الكرسي كذلك .. « أنا أقص يدي من الإبط إذا لم تكن فدوى كلها أصغر من عجيزة حمندوش . العمى يضرب حمندوش ! في الحقيقة لا يوجد مجال للمقارنة بينهما . حمندوش عندما يدخل يقول : « على العوافية » ولك شو نحن في حواش الزيتون ؟ من يستطيع إفهام حمندوش بأن لغة التخاطب في الدوائر الرسمية يجب أن تكون أنعم من لغة جنابزة الجحاش في البازار ؟ فدوى لا تقول « صباح الخير » وإنما « سباه الخير أستاذ مسوود !» وإذا ناديتها لا تقول « نعم » وإنما « نام ».. حتى إن مسعود شرع يتقصد أن يقول لها بين جملتين : يا آنسة فدوى « فتقول ـ بعفوية أو على نحو مقصود ، والثانية أرجح ـ : نام .

* * *

شريط رائع ، تقول الكاميرا لنفسها ، يجب إعادة المشهد الأخير من أوله :

تك ، تـك ، تك .. صوت نقر كندرة
نسائية على بلاط الممر . قطع إلى
مسعود في مكتبه يتأهب . الباب ينقر
ثم يفتح وتدخل فدوى . جمال أسطوري
مع أناقة بادية .

فدوى : سباه الخير أستاذ مسوود .

مسعود يتنشط . مسعود : صباح الفل . أهلين وسهلين تفضلي استريحي !

تجلس فدوى . تهم بالكلام فيقاطعها مسعود

مسعود : كيف قهوتك ؟

فدوى : وسط

زوم على يد مسعود يكبس الزر . قطع
إلى الباب يفتح ويدخل الآذن الضخم .

مسعود : وأنا كمان وسط . هات لنا اتنين قهوة وسط .

يخرج الآذن . مسعود يلتفت إلى فدوى .

فدوى : لازمني إشازة يومين وإشازاتي خالسة . فيه أندي شهلة دغوغية كتيغ كتيغ .

مسعود يلاحظ أنها تلفظ حرف الراء بطريقه رائعة .

مسعود : ضرورية كتير ؟

فدوى : كتيغ كتيغ !

مسعود : يآنسة فدوى .

فدوى : نام .

في هذه الأثناء تلاحظ الكاميرا أن كل كلمة تقولها فدوى تنقص من طول مسعود سنتيمتراً أو أكثر ، حتى إنه غاص لا يظهر منه سوى رأسه . وفي لحظة انهض نفسه وارتفع . لقد دخل الآذن وقدم لهما القهوة ، وعندما وضعت فدوى طرف الفنجان بين شفتيها بطريقة جعلت القهوة لا تؤثر على أحمر الشفاه طقت ضبانات عقله من الفرح . وتدخل عقل مسعود طالباً منه إبداء شيء من الصرامة وألا ينسى أنه مدير . زجر مسعود عقله ، ومع ذلك امتثل ، وقال لفدوى : « هاي المرة معليش .. بس شوفي ..» وأشار بيده إلى ورقة رسمية ملقاة على المنضدة . فتقدمت فدوى وانحنت لتنظر الورقة فسقط شعرها الطويل الأشقر الشبيه بشعر المرأة التي شاهدها في التلفزيون تقدم إعلان شامبو « هابي نيو هير ». امرأة الإعلان غطست كلها في بركة ماء صاف كدمع العين ومكثت فيه دقائق ثم خرجت دون أن يبتل شعرها ـ بفعل الشامبو طبعاً ـ سقط شلال شعر فدوى أمامه فهمَّ بإدخال يده تحت الشلال . ونظر وراء أذنها فرأى النقطة التي يفترق منها الشعر عن بياض البشرة وكيف يَتَحَدَّرُ خط الافتراق ، على نحو يقطع الأنفاس ، حتى يلتحم مع ملتقى الثديين اللذين انضغطا على بعضهما بعض في تلك الهنيهة . ههنا طار ما بقي في جعبته من عقل وحلم وإرادة ، وسلط عينيه الجائعتين كمنقاري عصفورين تأخرت عليهما أمهما في الزق ، وتابع امتداد الخط داخل البلوزة الخضراء التي كانت تتبادل المواقع مع الأبيض الزهري ، وراح الخيال يفعل فعله في إشباع الفضول الوثاب المستقتل على معرفة الطريقة التي ينفلت

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

فيها الخط متحولاً إلى سرة صغيرة تتوسط بطناً لا يحتاج غير راحة كف مسعود لاحتوائه كله ، ومن هنالك ينطلق في اتجاه معاكس حيث الردفان يقفان وراء أجمل تشكيلة خصر وعجيزة في العالم العربي ..

وينشط الخيال أكثر ليحول صفة فدوى من « الآنسة فدوى » إلى « السيدة فدوى »، ويجعلها تقيم علاقة مع مسعود ، لذلك نراها في المشهد تحاول التملص من محاولات مسعود الباسلة للمسها أو تقبيلها أو الاحتكاك بها ، لا تتملص منه لأنها لا تحبه ، لا سمح الله ، ولكن لأنها تتوجس خيفة من أن يلمحها أحد ـ الآذن الضخم مثلاً ، أو غيره ـ فيبلغ النبأ زوجها فيطلقها ويخرب بيتها ، هذا إذا لم يذبحها أخوها الشراني طيفور ... ولكن مسعود يقفل على كل الموضوعات المطروحة ويبقى مستبسلاً في سبيل نيل مراده .. يقول لاهثاً :

ـ خلي العالم كله يعرف أني على علاقة بك ، طيب طلقي زوجك وأنا مستعد أن أتزوجك .. مستعد أن أطلق زوجتي ..

* * *

إذ يصل مسعود في التخيل إلى حد « أطلق زوجتي » يستفيق ليجد زوجته واقفة قبالته وصدى الهأهأة القدرة التي ألحقتها بعبارة « بس لا تظلم الناس الله يرضى عليك » ماتزال مرتسمة على وجهها . مسعود يضطرب ويحاول الخروج من جديد .

نهاد تستأنف حديثها :

نهاد : الحقيقة يا حبيبي ، أن شهادتك العليا تؤهلك لأن تستلم أعلى المناصب ولكن ..

إن بطل قصتنا ، مسعود أبي فريج الوسيم يكره كلمة « ولكن » التي لا تستعمل إلا وراء عبارات الإطراء ، ودائماً يخيل إليه أن الإطراء لا يقال أساساً إلا لكي تعقبه كلمة « ولكن ». إن مسعود أبي فريج الوسيم يعرف الآن ما هي المسألة التي تنوي زوجته نهاد أن تطرحها بالضبط . ليتها تتراجع عنها ، ليتها تتراجع . ولكن ! ليس من عادة نهاد التراجع . إن الله جل جلاله كان يخلق

تيساً ، ثم شاءت قدرته أن يخلق إمرأة لها عناد التيس فكانت نهاد . فلنكبس الملح على الجرح إذن . وخلها تقول عبارتها وتخلصنا . أف !

مسعود : « ولكن » شو حبيبتي ؟

نهاد : صاحبك ..

مسعود : مين صاحبي ؟

نهاد : صاحبك الذي عينك مدير شركة (س)..

مسعود : أيش به ؟

نهاد : خبصني ! لعنة الله عليه ما أثقله . جسمه ثقيل ودمه ثقيل .. الله يقطع خبره ما أثقله !! هأ ..

قالت قولها هذا وفتحت الباب ودفعت مسعوداً إلى الخارج وهي تردد : بالسلامة حبيب قلبي .. بالسلامة .. شو بدي وصيك ؟ ما تظلم هه !

١٩٩٢/٢/١

قباقيب حضارية

– الله يوفقك يا بابا ، لا تأخذ عنا فكرة سيئة ، فنحن أبناؤك ، ونعرف كيف نتصرف ، ولكنه لم يترك لنا فرصة لنقول كلمة واحدة . لم يسأل عن شيء ، لم يطلب شيئاً .. أنت والماما خرجتما من الباب ، ركضنا نحن إلى الشرفة كي نلوح لكما بأيدينا : فتحتَ أنت باب السيارة ، صعدت أمي ، أغلقتَه ، ومشيتَ إلى الباب الآخر ، صعدتَ ، دوَّرت المحرك ، انطلقتَ ، رُنّ الجرس .

هرعنا إلى الباب ، وجدنا جارنا الساكن تحتنا في القبو ، الرجل الذ ي قلت لنا عنه ذات مرة وأنت تشير إلى هيئته المهلهلة :

– انظروا يا أولاد ، هذا شاعر ، ياحرام ! من أراد منكم أن يكون مثله فليلحق مصلحة الشعر !

كان يخفي وراء ظهره شيئاً لم نعرف ماهو . قال : «مَنْ منكم ثروت ؟ » قلت له : «أنا ياعمو» قال : «أين أبوك ؟» قلت : «خرج مع الماما في مشوار» قال «ومتى يرجع ؟» قلت : «والله ياعمو قد يتأخر» قال : «عظيم !» واندفع الى الداخل مثل السهم . فتحنا له الطريق مدهوشين . نظرت فتبينت الشيء الذي يخفيه وراء ظهره . كان عدلاً من الخيش . قلت لنفسي : (هذا يعني أنه جاء يسرقنا) . وقد سرقنا فعلاً : انحنى تحت الطاولة التي وراء الباب ، نظر ،

ابتسم ،فرك يديه بفرح ، ثم مد يده وأخرج قبقابك ، نظر في قعره ، امتعض ، القاه في الكيس ، حمل قبقاب الماما والقاه في الكيس ، ثم مديده إلى قدمي أختي هبة وشلحها قبقابها الذي كانت تطرطق به على الأرض فرحةً قبل قليل ، رماه في الكيس ، فعل ذلك مع أخي عطا أيضاً ، ومعي .لم يترك في البيت قبقاباً واحداً . أخرج من جيبه خيطاً من القنب ، ربط به الكيس ، حمله على كتفه وخرج . كان علينا أن نتصل بك ونخبرك بالأمر ، ولكنك لم تقل لنا أين ذاهب ، اتصلنا بعمو عبد الغني ، لم نجده ، عمو عبد الرزاق ، لم نجده أيضاً . صرنا نركض إلى الشرفة ، حفاة ، كلما سمعنا زمور سيارة ، وإلى الباب كلما تهيأ لنا انه يُطرق . وقبل أن تصل أنت وأمي بقليل ، طُرق الباب ، فتحنا ، وإذا هو الشاعر المسكين ، وعدل الخيش على كتفه ، والعرق يسيل على وجهه . سألني : عاد أبواك ؟ قلت : لا . فأنزل العدل عن كتفه ، فك خيط القنب ، قلب العدل على قفاه وأفرغه . ها هي قباقيبنا كاملة لم تنقص فردة واحدة ، ولكنها ، كما ترى ، ملبَّسة بالجلد أو بالنعل ، لا أدري ، وعادت لاتصدر صوتاً عندما تدق بالأرض ، صارت تشبه الشحاطات البلاستيكية ؛ يمشي الواحد بها وكأنه يتلصص ، لذلك رفض أخي عطا أن يلبس قبقابه ، وكذلك أختي هبة ، ونحن أيضاً ، لأنه ، والله يا بابا ، القبقاب ليس قبقاباً إذا لم يطرطق .

نسيت أن أقول لك ، وجدت مع القباقيب ورقة مطوية ، فتحتها وقرأتها . انظر ماذا كتب عليها الرجل :

(حقيقة علمية : إن القباقيب التي تُلَبَّسُ قعورها بالجلد لَهِيَ قباقيبٌ حضارية !)

الحلقة العاشرة

ـ لا شيء أهون من الذبح . اسمع كلامي وافهم : قبل كل شيء يجب أن تكون طاهراً .. أنت الآن صغير ، ولكنك فهيم ، إذا كان الرجل ـ لا حياء في الدين ـ قد نام مع حلاله في الليل ، يستيقظ باكراً ، يسخن قليلاً من الماء ويغتسل .. وقبل أن يذبح يتوضأ ، ويتجه إلى الحظيرة ، ينتقي واحداً من الخراف ويسحبه من أذنه خارج الحظيرة . الغنم جنس من الحيوانات عاقل . لا يوجد أعقل من الغنم على وجه الأرض ، خذ ماتشاء منهن واذبح ، ولكن واحداً واحداً ، لا تذبحه أمامهن . عندما تختلي به عليك أن تبطحه أرضاً بحركة خاطفة ، وتدوس على رقبته بقدمك اليسرى . بعدها ضع إحدى عينيه على الأرض وغطِّ عينه الأخرى بأذنه بحيث لا يراك ولا تراه . وقل له : سبحان من حللك للذبح الله أكبر !.. وأنزل السكين في مذبحه بسرعة البرق ، نزلة إلى تحت وسحبة إلى فوق ، ويجب أن تكون سكينك قاطعة ، فاهم ؟ ثم اتركه يلعبط ويتنفض حتى يصفي دمه ويهدأ . هكذا أمر الله ورسوله .

* * *

ـ ابنكِ المنظوم ، الوحيد ، المدلل ، النازل من المزاريب ، لا يريد أن يكون قصاباً . أعجبك ؟ ابن الكلب قال إنه يحب المدرسة ، سيدرس ويتوظف . هأها

كه كه .. يريد أن يلحق كار الشحادة ، يتوظف عند الحكومة بألف وخمسمئة ليرة في الشهر تربحها دكاننا في يوم واحد . وعندما زنأته وقف بالباب وقال لي ، هكذا ، ووجهه في وجهي ، إن شغلتنا هذه وسخة،وفيها غش ، وإنه رآني بعينيه أضع الشحمة في الميزان وأغطيها بقطعة الهبرة .. أين يريدني أن أضع الشحمة إذن ؟ في ... أمه ؟ العمى ! قالها وهرب وهو يحرف اني لا أحب أن أضربه . أعجبك ؟ علي الطلاق منك ومن ضرتك ، لو كان عندي صبي غيره لكنت وضعت رجلي في ظهره وقلت له رح في ستين جهنم . ولكن ، ماذا أعمل ؟ هل أشغّل إحدى بناتي قصابة على آخر الزمن ؟ أم نترك مهنة أبينا ونلبس طقماً وكرافة ونمشي ونهز مثل الأساتذة ؟

* * *

ـ ستكون قصاباً غصباً عن رقبتك ، وإلا فاني سأقطع أذنك وألقيها في الميزان وأبيعها . يا عرص يا ابن العرص ، أبوك قصاب وجدك قصاب وجد جدك قصاب . تسعة جدود يا نذل يا حريمة ؟ ماذا سيقول الناس ؟ آ ؟

* * *

ـ إبنكِ ـ الحمد لله ـ فهم الحكي . اليوم نزل معي إلى المسلخ ، وتفرج علي وأنا أذبح « شرشور » هأهأ كه كه .. تصوري ! إنه يسمي الغنم بأسماء مثل أسماء البشر . قلت له : الله يرضى عليك يا ابني ، أنا غداً سأكون مشغولاً بتسجيل الأرض التي اشتريناها البارحة من الأستاذ مسعود ، والدكان يجب أن يظل مفتوحاً .. لذلك أريد منك يا سبعي أن تبكّر وتذبح خروفاً وتبيعه ريثما أرجع ... وعلّمته كيف يكون السلخ وتشفية اللحم عن العظام والفرم ومعاملة الزبائن . جرح يده وهو يعاونني جرحاً بسيطاً . هأهأ كه كه .. قلت له : لا يهمك يا سبعي ، هذا الشيء لا بد منه في البداية ، ولكن عندما تتقن المصلحة ستجد كل شيء فيها مثل شرب الماء . هل تصدق أن جدك ـ الله يرحمه ـ كان أحياناً يذبح وهو مغمض العينين ؟

ـ يا الهي ! ماهذه المحنة ؟ وهل هو فرض أن يكون ابن القصاب قصاباً ؟ أأنا أذبح ؟ يا للهول ! ومن أذبح ؟ مهران ؟ غندور ؟ دعدوش ؟ لالالا ... أنا

لا أستطيع أن أنتقي واحداً ولو بقيت هنا شهراً ؟ ما العمل ؟ قلت لنفسي : أغمض عينيك واهْوِ بيدك عليهن ، والمنحوس الذي تقع يدك عليه اذبـ ... آه ؟ اي ، اذبحه واخلص من هذه العلقة المسخمة . هه همه ! من هذا ! طلع تحت يدي أبو القلب الأسمراني ، أجمل خرافنا وأعقلهن . الله يلعنك يا أبو القلب الأسمراني . ما الذي جاء بك إلى هنا الآن ؟ تفضل يا سيدي ، ولا تؤاخذني ، خلني أذبحك وأضع خطيتك في رقبة القصاب التاسع ، أبي .. ما رأيك ؟ هاه ؟

* * *

ـ اي والله يا أخي ، مثل ما أحكي لك .. طبقت تعليمات القصاب التاسع ، أبي ، بحذافيرها ، عدا مسألة الاغتسال ، لأني كنت يومها صغيراً .. ولكن ، بما أنني قصاب فاشل فقد تعثر كل شيء في لحظة واحدة . رفعت السكين الحادة التي كنت خبأتها في زناري (في حين كان نبض أبو القلب الأسمراني ينتقل من قدمي التي على رقبته إلى جسدي فيسبب لي اهتزازاً متعاظماً)؛ وأنزلتها جهة الرقبة . كبّرت التكبيرة ، وقبل أن أنزلها في المذبح سمعت فحيحاً فالتفت جهته التفاتة جعلت السكين تفلت من يدي ورفعت قدمي عن رقبته حالاً ... ووجدتني أعدو مثل المجانين : كانت الغنمة « هيام » واقفة قبالتي والدموع تملأ عينيها . قسماً بشرفي يا أخي كانت تبكي مثل البشر !

* * *

الطريق

لانعرف لها نهاية . كلما استطلعناها ضاقت ووقعت في نقطة الفرار مهملة . ملقاة على الأرض كخرقة بالية .

تتثنى يمنة ويسرة . تصعد وتهبط على نحو يقطع الأنفاس .

السنون بهوائها وأمطارها وسيولها ووحوشها وسحاليّها أحدثت فيها حفراً عميقة .

المديرون المتعاقبون على (إدارة المواصلات البرية) لم ينسوها دائماً : كانوا يرسلون إليها شاحنات محملة بالزفت الرديء نفسه ، يذروها عمال مرهقون كيفما اتفق ، فيزيدون بحصها زفتاً . (يقال إن هؤلاء المديرين يرسلون هذه الحمولات أحياناً بقصد نفي ما يشاع عنهم من أنهم لا يفعلون شيئاً غير ركوب سيارات الدولة وقبض الرشاوى من المواطنين !).

العشب . الشوك . نباتات عديمة النفع : كالقريطبة والطقطيق والحندقوق والبسباس وعجور الجحش والنجيل والحلفا .. استبدت بجانبي الطريق إذ عجزت عن اختراق جبلّة البحص والزفت المزفّت .

لا خيار أمامك وأنت على دراجتك النارية العتيقة غير أن تخفف السرعة إلى أقصى حد ممكن وقدمك على الفرامل في أهبة .

في أي واد ستستقر عظامك إذا ما أنت أخطأت بالسير على الطريق ؟ كم من الناس طاحوا من هنا أو هنالك إلى الوديان ممثلين أدوار رعب دون وجود كاميرات تصورهم أو سجلات تحفظ أسماءهم .

ههنـا شاهدة قبر لفلاح عاش ثمانين حولاً (ولم يسأم) يلم الحصى من التراب ويشم الهواء النقي المعطر ويعلم أولاده وأحفاده كلاماً يظنه من قبيل الحكمة : (اللي بيتجوز أمك بيكون عمك!).... وعندما فكر بالموت لأول مرة خاف من أن يُزْرَبَ مع سائر الأموات في « مقبرة الحلفا »، فجمع أولاده وأحفاده حوله وأوصاهم أن يدفنوه عند حدود بستانه كيلا يضيق نفسه في « الحلفا ». ويبدو أن خفة دمه التي رافقته خلال حياته لم تهدأ حدتها ، فأوصاهم أن يكتبوا على شاهدة قبره ما معناه أن المرحوم الراقد هنا عاش عزيزاً مكرماً ، وأنه اشترى أربعين بيضة بمصرية* ومع ذلك لم يفكر بالهرب من وجه عياله (لا قرت أعين الجبناء !).

قال رجل من أصحاب الميمنة : نحن نعرف مبتداها ، ولدينا تصورات لا تقبل الجدل عن منتهاها و« كل بدعة وكل ضلالة في النار ».

قال رجل الشرطة : نحن الآخرين نعرف بدايتها . وهي كبدايتهم ، مع أن أمر البداية لا يهمنا كثيراً . وأما مسارها نحو النهاية فنحن نحدده . (فيه أحد عنده اعتراض ؟)

قال طه حسين : الشعر الجاهلي أكثر منحول ..

قال أصحاب الميسرة : بدايتها تشبه وضعها الراهن . ولكنها كانت يومئذ لينة جداً . ونحن نعرف كيف تحجرت : إنها ألعاب قذرة لعبتها الامبريالية وأذناب الاستعمار والرجعية .

وقال أنصار حماية البيئة إن الواجب يقضي بأن نمنع السيارات التي تعمل بمحركات الديزل من السير عليها . وكذلك الطرطيرات التي تصدر أصواتاً مزعجة .

---

* المصرية : عملة عثمانية زهيدة جداً .

قيل فيها الشيء الكثير ، ولكننا مع ذلك :

مانزال نمشي عليها ببطء ، وحذر ، خشية أن تزل أقدامنا فنهوي ممثلين أفلام رعب خالية من الخدع السينمائية ، ودون كاميرات تصورنا أو سجلات تحفظ أسماءنا .

قاموس الذكريات العجيبة

إلى أستاذنا صديقنا : أبي طرفة الحنون .

في حفل تكريم شاعر بلدنا الشهير « حبيب الدمشقي » الذي بلغ من العمر ستين عاماً ، ألقى الشاعر الأستاذ « بهيج أبو قمطة » كلمة .. هذا نصها الكامل :

ـ أيتها السيدات ، أيها السادة ، عمتم مساءً :

يصادف اليوم ، التاسع عشر من آب من عام سبعة وثمانين وتسعمئة وألف ، عيدَ ميلاديَ التاسعَ والخمسين . وهذا التاريخ في الوقت إياه يعني مرورَ أربعين عاماً بالتمام والكمال على صدور ديواني الشعري الأول « شظايا الجلجلة الطاحنة »، فأنا ، وأعوذ بالله من شر هذه اللفظة ، قرضت الشعر على نحو مبكر للغاية : كتبت أول قصيدة وأنا في الصف السابع . حملتها وهرعت إلى أبي ـ طيب الله ثراه ـ معتقداً أنه سيفرح بي ، ولكنه ما إن علم بالأمر حتى استل حزامه وشرع يلطني به على مؤخرتي ، حتى أعلنت أمامه التوبة على القبلة الشريفة وحلفت له على المصحف ألا أعود إلى ذلك ما حييت . كان يريدني ـ رحمه الله ـ أن أكون تاجراً في سوق الهال لأسد مسده بعدما يلاقي ربه .. ولكن كيف لي ذلك سيداتي سادتي وشيطان الشعر ضارب أطنابه في روحي وبدني ؟ ومن يومها رحت أقرض الشعر في الخفاءحتى وافت أبي المنية ، وكان

ذلك في غرة من نيسان من عام سبعة وأربعين وتسعمئة وألف . وارييناه ترابه ، واسرعت إلى البيت . لملمت قصاصاتي وأوراقي ، وطبعت ديواني الأول ، علناً!

بعد ذلك بزمن لا أدري مقداره ، وبينما كان صيتي يعبر حدود مدينتي الصغيرة لينتشر في الأصقاع والأقطار ، سمعت بالأخ الكريم الأستاذ « حبيب الدمشقي » الذي نحن في صدد تكريمه الآن . أذكر ذلك جيداً ، كنت قد ذهبت إلى دكان أبي في سوق الهال لمحاسبة الأجير ، وأنا في طريق عودتي ، التقيت بصديق عمري الأستاذ الشاعر « محمد مبشر الأنسي » ـ الذي ستستمعون إلى كلمته المعبرة بعد قليل ـ استوقفني واستدناني وقال لي :

ـ أأعجبك هذا يا بهيج ؟ ها شاعرٌ آخر يكتب الشعر الحر !

ضحكت وقلت له :

ـ هو حر ! خله يكتب ما يطلع من خاطره !

فقال لي وهو يتميز من غيظ :

ـ كلها من ذلك المعصمص بدر السياب .. خرب الشعر الله يخرب بيته .

فقلت له مواسياً :

ـ دعه ! ألم تسمع ما يقوله العوام في أمثالهم : (فوق عماه طَبِّشْ له !)؟ أليس هذا أحسن من أن يكتب موزوناً مقفى فيلخبط لنا الشغل ؟

في الخمسينات انتشرت شهرة الدمشقي في البلاد ، والناس عندنا يحبون المبالغة كما تعرفون ، لذلك لم نعدم من يقول على الملأ إن حبيباً هو أهم شاعر في القطر !! وأما أنا فكنت أرى (وما أزال) أرى أن سبب الشهرة التي بلغت به ما بلغت ليس في أهمية شعره ، أبداً ، هأنذا أقولها وبيني وبينه شبر ، إن سبب شهرته الحقيقي قد تأسس على دخوله السجن يومين ثلاثة من أجل كلمتين فاه بهما وهو ثمل . هذه هي القصة من الألف إلى الياء ، والناس ، أقصد الغوغاء ، لا أدري لماذا يحبون من يسجن أو حتى يوقف ساعتين . ولكن الحق على من ؟ الحق علي أنا . أما كان في مستطاعي أن أشرب بطحة وأحكي كلمتين عوجاوين أمام شرطي عابر ؟ أما كنت سُجنت وانتهى الإشكال ؟ سامحك الله يا أبي ، سمع مرة أني شربت كأساً فرفعني فلقة ماتزال قدماي تحكانني كلما تذكرتها ، مع أن الخبر

كان كاذباً ، واقسم اني لم اذقها طوال عمري .

سيداتي انساتي سادتي :

ثم طبعت ديواني الثاني « صاحبةُ الثغر المجيد »، وكان فيه قصائد غزلية . واصارحكم بأني في تلك الأثناء لم تكن لي حبيبة ولا زوجة ، ومع ذلك تغزلت . ولعلكم تتساءلون : بمن ؟ والله إني لا أدري ، كل ما أدريه هو أن أبي ـ رحمه الله ـ رباني تربية صارمة تحرم معاشرة النساء بغير الحلال . ومع ذلك لقي الديوان نجاحاً باهظاً ، وكتب عنه النقاد الشيء الكثير .

وأخذ اسم الدمشقي يطاردني . لم أكن أعرفه شخصاً . (يجب أن أتعرف عليه ولكن كيف ؟). سألت صديقي « الأنسي » فأخبرني بأن حبيباً يدرس اللغة العربية في مدرسة « الوحدة العربية » قلت : طيب . ولأنني لا أحب أن أرميها واطئة فقد تدبرت أمر تعييني مديراً لها في الحال . وفي أول فرصة بين درسين استدعيته بحجة مشاهدة دفتر التحضير ، و ... فتحت له ملف الشعر . قرأت له القصيدة التي كتبتُها في مديح مدير المعارف بالمحافظة آنذاك المرحوم « ناظم بيك مدحة ». لما انتهيت من قراءتها كان المرنان قد أعلن وقت الدخول إلى الصفوف . نهض حبيب ، وكانت ملامح وجهه قد تغيرت قليلاً ، واتجه صوب الباب دون أن ينبس ببنت شفة . استوقفته وسألته :

ـ مارأيك ؟

فقال وهو يعبر الباب :

ـ جميل !

قال (جميل). أي نعم ، قال (جميل). هاهو أمامكم الآن فاسألوه . أستاذ حبيب ، قلت (جميل) أم لم تقل ؟ بلى ، مازلت أذكر ذلك على الرغم من تنائي الزمن . سألته كي يطمئن قلبي :

ـ وما هو الجميل في القصيدة برأيك ؟

قال :

ـ أنك لم تتركها في داخلك !

صدقوني أني لم أفهم معنى عبارته تلك حتى هذه اللحظة . صحيح

يا أستاذ حبيب ، ماذا قصدت يومها ؟

في مطلع عام أربعة وخمسين وتسعمئة وألف، دُعيت لأداء الواجب المقدس ، وقد سررت بيني وبين نفسي وقلت : (الميدان أمامك في الجيش واسع يا بهيج ، فهنالك لا دمشقي ولا ادلبي ولا ما يحزنون). لقد خدمتها برتبة مرشح ، لذلك فقد كان يتاح لي أن أقرأ شعري للضباط وصف الضباط والبيادق . غير أن هذه الدنيا ـ سيداتي وسادتي ـ غدارة لا تسلم الانسان إلى الهناء طويلاً ، فما هي إلا شهور قلائل حتى فوجئت بحضرة الرقيب المجند حبيب الدمشقي مفروزاً إلى السرية التي كنت قائدها ذاتها ، مع أمر ينص على تسليمه قيادة الفصيلة الثالثة . ومنذ اللحظة الأولى تعانقنا عناق الأحبة ، ودعوته للجلوس فجلس ، فبادرته بالقول : (اي وبعد ؟) فهز رأسه غير فاهم ما أقصد وأنا لم أشأ إفهامه يومئذ .

أما ما كنت أعنيه بقولي (اي وبعد ؟) فسأكشفه له أمامكم الآن بعد مضي ثلاثة وثلاثين عاماً . يا أستاذ حبيب صدقني أني لم أعنِ بها شيئاً على الإطلاق ، وإنما أردتها أن تكون رداً على عبارتك الغامضة التي قلتَها لي بين الدرسين الأول والثاني في مدرسة « الوحدة العربية » هل تذكر ؟

ذكرياتي معه في الجيش طويلة . كان ـ أمد الله في عمره ـ مولعاً بشرب القهوة ، وأما أنا فبالشاي والنرجيلة . وكان عندي في السرية عريف مجند رامي مدفع ، قليل ذوق إلى أبعد الحدود .. كان يلحق بنا أنى ذهبنا . نمشي فيمشي . نجلس فيجلس . وكان حبيب يسايره ، ولهذا كنت أتحمل ثقل دمه . كان يصغي عندما يقرأ حبيب شعراً كما يصغي الأبله .. حتى إذا ما جاء دوري لأقرأ كان يقف ويقول :

ـ أعمل لكم قهوة ؟

اشتهيته أن يقول مرة واحدة : (أعمل لكم شاي ؟) أو يسطر لي نفس تنباك !

في تلك الآونة وقعت حرب السويس . جمعنا قائد الكتيبة وطلب منا ترشيح من نراه مناسباً لإرساله ضمن القوات التي ستوجه لمساندة مصر الشقيقة .

فقلت له :

ـ يا سيدي ، عندي عريف مجند يحب الشعر الحر ويكره الاستعمار والإمبريالية والصهيونية ، سجل لي اسمه إذا أمرت !

وكان الأمر ، دفشناه إلى مصر ، فما عاد قط .

سيداتي سادتي :

وتشاء المصادفات (المصادفات الجميلة بالطبع) أن ألتقي حبيباً مرة ثالثة . كان ذلك في أواسط الستينات . كانت الجزائر الشقيقة قد تحررت ، فكتبت قصيدة أشدت فيها بدماء المليون شهيد الذين رووا ترابها بدمهم الزكي ، ونوهت إلى أن واجبنا نحن مدرسي اللغة العربية يقضي أن نؤازر شعبها الشقيق الذي تعرض لفرنسة وحشية ، فنعلّم أبناءها لغة أجدادهم التي أنساهموها المستعمر البغيض . نشرت القصيدة في « مجلة المعلمين » فقرأها معالي الوزير الأفخم آنذاك ، واستدعاني إلى مكتبه بدمشق ، وعرض علي في أثناء ما كنا نشرب الشاي إعارتي إلى الجزائر حتى أترجم ما قلته في القصيدة إلى عمل . وأسرّ لي بأن الرواتب مجزية فقبلت وشكرته بقصيدة لاحقة سمعت من بعد أنه وضعها ضمن إطار مذهب وعلقها في صدر مكتبه ، رحمه الله .

وهنالك ، في الجزائر ، وبمحض المصادفة التقيت بحبيبي الدمشقي . قلت لنفسي : (يا بهيج ، لات مناص !).

أولاد الحرام ، الجزائريين ، على ضعفهم الشنيع بلغة أجدادهم ، يحبون الشعر الحر . لعل هذا من تأثير ثقافة المستعمر ؟ لست أدري . ربما . وإزاء هذا كان لا بد لي من خطوة أخطوها : صرت أكتب ـ على مضض ـ قصائد على التفعيلة . ولكنهم ظلوا يميلون إليه . فكرت بالأمر طويلاً ، ثم ذهبت إلى حبيب وقلت له :

ـ يا أستاذ ، تراها الشغلة زادت عن حدها .. فإما أنا أو أنت !!

قال :

ـ لم أفهم .

قلت :

ـ الآنسة فلة ، البنت اللبنانية الحلوة مدرسة اللغة الفرنسية ...

قال :

ـ اي .. شو بها ؟

قلت :

ـ أمامك ثنتان وسبعون ساعة ، تكتب خلالها قصيدة غزل لها ، وأكتب أنا قصيدة ، ثم نجيء بعد ثلاثة أيام صباحاً ، فنقرأ لها القصيدتين . وبناء على ذلك يتقرر أينا أشعر من صاحبه .

إن الأستاذ حبيب لا يميل إلى مثل هذه الألعاب . ومع ذلك وافق على الاقتراح . جئنا في الموعد المحدد واختلينا بفلة . كنت قد انتقيت واحدة من القصائد الكثيرة التي كتبتها في حبها مذ وصلت الجزائر . قرأتها لها وسألتها رأيها فقالت :

ـ Merci beaucoup Monsieur Abou Kamte .

(أي : شكراً جزيلاً يا سيد أبو قمطة). قلت :

ـ والأستاذ حبيب عنده قصيدة .

فقرأ حبيب قصيدة تنم عن ضعف الجانب الغزلي في شعره . تصوروا سيداتي سادتي : لقد خلط يومها المرأة بالسياسة بالسجن بالنضال ضد الاستعمار والصهيونية . صدقوني أنه لم يأت على ذكر ثغرها أو رضابها أو جيدها أو نحرها أو شعرها الهفهاف أو عجيزتها المدملجة . فأي غزل ذلكم الغزل ؟

ومع هذا اندفعت إليه ـ بنت الحرام ـ وقبّلته بحضوري ، دون رادع من ضمير .

أيتها السيدات ، أيها السادة :

اعذروني إن كنت أطلت عليكم ، ولكنه دفق الذكريات ، وإنه كان لابد من أن ألبي الدعوة الكريمة من « جمعية الكتاب » لأقول كلمتي في حفل تكريم أخي وحبيبي وصديقي ورفيق عمري الأستاذ حبيب الدمشقي ، وإنها لمبادرة رائعة

من جمعية الكتاب ، فتكريم الكتاب الكبار ، عندما يبلغون الستين ، تصرف في غاية النبل .. وأحب بهذه المناسبة أن أذكركم جميعاً بأني في التاسع عشر من آب القادم ، على وجه التحديد ، أكون قد أتممت الستين من عمري بمشيئة الله .

شكراً لاصغائكم والسلام عليكم ورحمة الله .

افتحي عينيك جيدا

- إلى علي فوزات -

رفع الاستاذ عبد الحنان عينيه عن كومة الأوراق المتشابهة المكدسة أمامه ، فرأى منظراً لايمكن لناظر في أوراق متشابهة أن يرى أجمل منه : رأى امرأة صبية ، جميلة ، أنيقة ، منتصبة كالغزالة ، تنتظره حتى يفرغ من أوراقه المتشابهة . .

على الفور ، ودون أن يحاكم الموقف ، قرر أن يقبِّلها !

لماذا لايقبِّلها ؟!

انفرجت شفتاه لهذه الفكرة الطارئة : الشفة السفلى أفلتت ، وزحلت الى الأسفل ، وعصب العليا ، المتصل بعينه اليمنى ، انشد ، فشالت العين ، واستدارت ، وضاقت فتحتها ،وارتفع حاجبها الى أقصى ما يمكنه أن يرتفع .

لماذا لايقبلها أيها الأخوة المواطنون ؟

هي موظفة صغيرة صغيرة في الشركة ، وهو المدير العام ، الحاكم المطلق فيها ، اعتباراً من كولبة الحارس قدام المدخل الرئيسي ، وانتهاء بآخر مقطع من السلك الشائك في أقصى الشرق منها .. وإن الأنظمة والقوانين المعمول بها في البلاد قد أعطته الحق في تطبيق أقسى العقوبات على العاملين فيها ، من التنبيه والتوبيخ ،الى حجب الترفيع والإحالة الى مجلس التأديب ، إلى الزقّ في السجن ..إلخ ، وهذه كلها إجراءات ضارة بالموظف ، وأما القبلة ، وهي شيء نافع ، ولذيذ ، فلم يعطوه الحق بها ..إن في القانون لثغرةً ، ينبغي سدها حالاً .

ورفعته قوة خفية عن الكرسي البرام الذي بدا له أكثر التصاقاً بمؤخرته من أي وقت مضى .

- أهلاً وسهلاً بالآنسة نوال ! أليس اسمك نوال ؟

ومد يده مصافحاً .

- عفواً أستاذ .. أنا سامية !

- أفّ ، الله يلعن الشيطان . نسيت . كيف الصحة ،آنسة سامية ؟

وضغط على كفها فخالط حمرته بياضٌ بلون حب الرمان ...

- قولي لي .. هل تتعرضين إلى مضايقات ؟ .. أبداً ؟ لا ، لا ، ، لابد أن زملاءك في الديوان يتراذلون معك ، أنا أعرف ..

- عفواً أستاذ .. أنا في المحاسبة !

- أف ..صحيح والله .. أنت في المحاسبة .. زملاؤك في المحاسبة يتراذلون معك ؟ كلا ؟.. لا أصدق .. آنسة سامية ، نحن لم نتفق هكذا . اتفقنا أن نحكي مع بعضنا البعض بصراحة تامة . يتراذلون معك ، فلماذا تسكتين عنهم ؟ زملاؤك الرجال في هذه الشركة أنا أعرفهم أكثر مما أعرف نفسي يشهد الله .. يسمعون أن بنتاً ، لاعلى التعيين ، ستوظف عندنا ، فيستنفرون وكأنهم في حالة حرب . يدخل أحدهم ويقول : «ياشباب ! كل الصيدات لكم ، إلا هذه ، اتركوها لي» فيرد عليه آخر «لا ياه ! ثخنتها كثيراً .. المرة الماضية تركنالك هدى ، ورحت وجيت ، فلم تحصل غير بصقة ورفسة وخمس أصابع على وجهك .. فهل نترك لك الأخرى ونفتح نجن فمنا إلى السماء ؟» ، وينط ثالث : «والله الشباب هنا يظنون أنه لايوجد في هذه الشركة أحد يحب النساء غيرهم .. إحم .. نحن هنا !» ويقوم رابع «ونحن ماذا ؟ نكرات أم خصيان ؟» وتحتدم بينهم ، ويبدأ التراشق بالمحابر والطرابيزات والكراسي .. كل هذا وهم لم يروا صورة وجهها بعد . فتأملي !

اقترب منها أكثر ، بينما أصبحت نبرة صوته خفيضة :

- لو كانوا أعزاباً لما زعلت منهم أبداً ، لأن الأعزاب .. أنت عزباء وتفهمين .. ولكنهم متزوجون ، وأبناؤهم بطولهم ، والواحد منهم ، في حضور

زوجته ، مثل النقطة في المصحف ، لايلتفت ولايرف ، وحبات المسبحة في يده لاتهدأ ، طق طق طق ..، طالعة نازلة ، وإذا حضرت سيرة النساء يحوقل ، ويقول : «الله يلعنهن ويلعن سيرتهن .. اللهم أبعد عنا الحرام» .. مع أنه ابن حرام صرف ، إذا لم تكن زوجته معه ترينه مثل المراهقين ، ينكّت ويمزح ويحمر وجهه .. وفخه منصوب دوماً . ولمن ؟ لزميلته في العمل التي يفترض به أن يعاملها كأخت . يقول لها : «عفواً مدموزيل ..» بالفرنسي ماشاء الله ، حصنته بآيات الله ، مع أنه ممضٍ نصف عمره وراء البقر ونصفه الآخر حافي القدمين على البيادر ، فمن أين جاءته الفرنسية بلا قافية ؟ «مدموزيل ناوليني هذا المصنف إذا سمحت ؟» فتمد زميلته - بنية صافية طبعاً - يَدَها لتناوله المصنف ، فيلف هو يديه حول يدها ، هكذا ، أي نعم ، فإذا سكتت عنه ، مثلما سكتّ أنت الآن ، تمادى وشرع يلحمس على يدها ، هكذا ، .. وأما إذا نترت يدها منه ، ورمقته بنظرة تعبر عن أصلها وشرفها ، فإنه يلجأ الى حيلة أدهى وألعن . يقول لها « باردون دقيقة »ويهرع إلى أقرب كرسي ، يجره إلى جوارها ، ويتناول من زاوية المكتب مصنفاً مرمياً فيها منذ ألف سنة .. يحمله ويصعد على الكرسي ، هكذا ، يصبح هو أعلى منها ، يدفع المصنف في الخزانة ، وفي الوقت ذاته يغرز عينيه ـ الله يبعث له العمى - في قلب فتحة الفستان ، بين النهدين تماماً . هو جميل ، أقصد منظر النهدين إذا نظر إليهما الإنسان من فوق ، ولكن ، السؤال ، لماذا لايتفرج على نهدي زوجته ؟ وهل نهود الناس مدشرة له ولأمثاله ؟ صحيح أنه لايستحي ..

أنت يانوال ، يابنتي ، حديثة العهد في هذه الشركة ، وتربيتك البيتية لاتسمح لك أن تسيئي الظن بالآخرين ، فتعاملينهم برقيّ وحضارة . ولكن ، ياضيعان الحضارة مع هؤلاء القرباط ! طيب ، لو أنا سألتك : «لماذا يقومون بهذه الأفعال الدنيئة» ؟ بماذا تجيبينني ؟ ستقولين لي : «لا لأعرف !» ها ها .. ولكن أنا أعرف والحمد لله . ياستي إنهم يفعلون هذا لأنهم عكاريت ، لاهمَّ لهم غير تسويد سمعتي أمام الناس . هم يعرفون أني رجل شريف ، شهم ، أمين ، صادق .. فيقولون في أنفسهم : «نلعب على زميلاتنا ، وبذلك نركب له قروناً

بثخانه قرون الكبش !، ولكن ، فشروا ، وأنا لهم بالمرصاد بعون الله ، أحبط مخططاتهم وأرد كيدهم إلى نحرهم ..

التصق بها تماماً ، وتحول صوته إلى همس :

ـ ولهذا أريد منك أن تكوني يقظة . افتحي عينيك جيداً .. أي واحدمن زملائك يمسك يدك ويلتصق بك ، ثم يرفع رأسه ويلتقط شفتيك ها .....كذا ..

استغرق حوالي دقيقتين ، ثم أفلتها وعلا صوته من جديد:

ـ اركضي إلي مثل لمع البرق وأخبريني عن اسمه ، ومواصفاته ، ومكان عمله ، حتى أتجه إليه فوراً وأطق رقبته وأكسر ذراعه وأعلقها في رقبته ، وأظل ألطمه على شفتيه حتى ينشب الدم منهما .. طبعاً ، فأنا لا أتساهل في مثل هذه الأمور مطلقاً . صدقيني يا نوال . أليس اسمك نوال ؟

سخريات صغيرة

١- سهرة عائلية

٢- فأر الكاباريه

٣- فأر الخمارة

٤- مكافأة

٥- الطلبية

٦- السيرك

سهرة عائلية

طلع صرصور يرتدي بدلة لونها قرفي ، وقميصاً سكري اللون ، وكرافة بيضاء .. وصرصورة حبلى في الشهر الأخير ،ترتدي سندويشة حبل بنية اللون ، وتشكلُ في الجانب الأيمن من شعرها المدردر وردةً حمراء ؛ من بالوعة بناية ضخمة في شارع ذي اتجاهين تتوسطه أشجار نخيل باسقة .

توقفا على الرصيف . جنكلت الصرصورة بذراع الصرصور واسترخت عليه .

مد الصرصور ذراعه باتجاه سيل السيارات المتدفق وصاح :

تاكس !

- فرملت سيارة صفراء مصدرة صوتاً حاداً . فتح الصرصور الباب الخلفي للصرصورة ، ثم أغلقه بعد صعودها ، وصعد إلى جانب السائق .

كبس السائق زر العداد ، والتفت إلى الصرصور مستفسراً عن الجهة المقصودة ، فأجابه الصرصور بلهجة جافة :

- بالوعة الميريديان لو سمحت !

فأر الكاباريه

دخل فأر وسيم إلى كاباريه (زنبيل النجوم) في ساعة متأخرة من الليل . استقبله البراسين ببشاشة ، وأجلسوه إلى طاولة محجوزة له مسبقاً . قاموابحركات غير ذات معنى ، وانسحبوا مفسحين المجال للميتر المرتدي طقماً أسود وقميصاً أبيض وكرافة حمراء .

ركز الميتر قلمه على ورقة صغيرة عليها شعار الكاباريه ، انحنى قليلاً ، وسأل الفأر :

- طلباتكم أستاذ ؟

فتصدر الفأر إلى الخلف ، ومد يده إلى محفظته الجلدية ، أخرج منها رزمة من أمهات الخمسمئة ليرة ، نسل منها واحدة وقذفها إليه وقال :

- أريد أن أتعشى ..

قاطعه الميتر قائلاً :

- من عيوني !

- تسلم عيونك .. وأريد أن أسكر و .. سوزان موجودة ؟

- سوزان تحت أمرك استاذ ..

نسل الفأر قطعة ثانية من رزمته ، قذفها للميتر ، وقال :

ـ بس أنا لا أحب النكرزة ..

قال الميتر :

ـ الذي سينكرزك نسحبه من ذنبه ونرميه في علبة الزبالة !...

اعتدل الفأر في جلسته ، ابتسم ، وتقدم نحو أذن الميتر (الذي انحنى في تلك اللحظة) وهمس له :

ـ حلال عليك .

وأومأ بيده صوب قط أسود كان جالساً إلى طاولة مجاورة ، فاتجه الميتر نحوه ، في الحال .

فأر الخمارة

انقطع رزق فأر الخمارة ذات سهرة ، إذ دخل قطان أسودان لهما شوارب طويلة معقوفة إلى الأعلى .

اختبأ الفأر في مكان يرى منه القطين ولايريانه ، وشرع يقنع نفسه بأنهما ليسا أكثر من زبونين عابرين يتناولان كأساً على الماشي ، أو بطحة في أسوأ الأحوال ، وينصرفان .

ولكن الجلسة راقت للقطين على مايبدو ، وأخذا يطلبان صحن الكباب وراء صحن الشقف ، ويضحكان ويتهارشان .

حاصر الجوع والعطش الفأر ، فتقدم بخطا وجلة صوب طاولة صاحب الخمارة التي كان يتركها كلما ناداه زبون من الزبائن .. التهم قطعة صغيرة من المرتديلا ، أتبعها ببلعة من السائل الأبيض المثلج ذي الطعم الحارق والرائحة الحادة .

التهب جوفه ، دمعت عيناه ... ثم انتشى ، وأحس بقوة غريبة تدب في أوصاله الصغيرة . تقدم إلى وسط الخمارة ، دق الأرض بقدمه ، وصاح .

ـ هيـه ، هيـ .. ـه ! أنا فأر الخمارة منذ مئات السنين .. القط الذي هو أخو أخته يتقدم نحوي حتى أريه قيمته ! هيه !

مثل لمح البصر ، أسرع إليه القطان ، حملاه بمخالبهما ، وغادرا الخمارة .

* * *

ما إن خطا القطان خارج الخمارة حتى وثب عليهما (بارود) كلب الزقاق الجعاري المتشرد الذي كان مقعياً على الرصيف قرب كوخ الحارس الليلي ؛ ضجراً يتثاءب من الجوع . وثب عليهما ربما من ضيق خلقه .

من عزة الروح أفلت القطان فريستهما وأخذا ذيليهما بين أسنانهما ، وهربا .

الفأر السكران طارت سكرته من برج يافوخه رعباً ، وعلى الرغم من جراحه تحامل على نفسه وتسلم أقرب ثقب في الشارع ، وغاب .

(بارود) المنتصر راح يعلن عن انتصاره بنباح هدار صاخب أيقظ الحارس الليلي من سباته الذي انغمس فيه فور انصراف الدورية . أمسك عصا الحراسة وكال بها الكلب على قائمتيه الخلفيتين بضربة مرتبة جعلته يغيِّر نغمة الزهو في نباحه إلى ما يشبه المواء المفجوع ، وابتعد حتى خمد آخر الجارة .

لم يأبه الحارس الى شكاة الكلب إذ وضع رأسه على جدار كوخ الحراسة وحاول أن يعود إلى النوم ، وإذا صافرة الدورية غير بعيد تجعله يشب واقفاً وهو مصعوق من الدهشة :

- لماذا تفاجئه الدورية مرتين في ليلة واحدة ؟ !

مكافأة

من عادل عبد الحق مدير شركة « سوالو / كو »

إلى سيادة المدير العام

يسرني أن أعرض على سيادتكم أن العامل السيد « محمد حمد الحميد المحاميد » قد تمكن من تصميم أنموذج لقطعة التبديل الرئيسية للآلات المستخدمة في نطاق شركتنا ، وأننا قمنا بناء على ذلك بتشكيل لجنة فنية عالية المستوى درست الإضبارة الفنية التي قدمها العامل محمد حمد الحميد المحاميد ، وخلصت إلى أن الأنموذج صالح للتصنيع بالأيدي الوطنية .

وبالنظر إلى أن عمل العامل محمد حمد الحميد المحاميد هذا يدخل في باب الاختراع العلمي الذي يحث عليه دستور البلاد وتكافىء عليه الأنظمة المعمول بها ، وأن اختراعه هذا يوفر على موازنة البلاد كميةً كبيرة من العملة الصعبة كنا في السابق نضطر لدفعها للشركات الاحتكارية العالمية لقاء تزويدها إيانا بهذه القطعة ..

لذا ...

أقترح منح الموظف الأستاذ ثائر عبد الحق (أبا نضال) مكافأة نقدية

تناسب حجم الاختراع ..

ودمتم ذخراً للوطن ·

مدير شركة سوالوكو

عادل عبد الحق

تعقيب المؤلف :

بلغني أن السيد ثائر عبد الحق ، أبا نضال ، بعد أن حصل على المكافأة أحب أن يطلع على مخطط الاختراع ، فأمر موظف الأرشيف بإحضاره ..

وبينما كان غارقاً في تأمل خطوطه التي تكاد لا ترى اندلق كأس الشاي على المخطط فأتلفه . وعندما سمع مدير الشركة السيد عادل عبد الحق بالكارثة استشاط غضباً وأمر بتشكيل لجنة للتحقيق في الموضوع ...

وبعد اجتماعات مغلقة ، ومداولات طويلة ، ومراسلات عديدة بالبريد السري ، انتهى الموضوع الى فرض أقصى العقوبات بالعامل محمد حمد الحميد المحاميد، فكان عبرة لمن اعتبر !

الطلبية

دخلتُ مكتبة ضخمة في قلب الشام . سلمت على البائع . وقدمت له قائمة بأسماء كتب أبحث عنها منذ زمن . تفحص القائمة . هز رأسه وقال :

ـ تجد معظمها عندي ، ولكن ...

وقبل أن أعرف ماوراء (لكنَّ)هُ هذه ، دخل شاب وصبية تبدو عليهما علامات نعمة مستجدة : الشاب طويل ، أسمر ، يرتدي طقماً أسود مقلماً (ونحن في الصيف !) . ويشد ياقة قميصه بكرافة تكاد أن تخنقه ، والصبية ترتدي قميصاً من الكتان الأبيض يشف عن الكثير من تفاصيل جسدها المكتنز ، وتنورة سوداء ، سلما على البائع بمرح ؛ ودون أي اعتبار لوجودي .ثم قال الشاب وعقدة الكرافة تعرقل صعود جوزة حلقه وهبوطها :

ـ نريد ثمانين مجلداً .

قال البائع في اندفاع :

ـ على راسي وعيني عناوينها لو سمحت ؟

قال الشاب :

ـ العناوين لاتهم !

والتفت إلى رفيقته التي بدورها أخرجت من حقيبة يدها ورقة مكتوبة رفعتها أمام عينيها ، وأخذت تقرأ على طريقة معلني نتائج المسابقات الأدبية :

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

- عشرون مجلداً ، سماكة عشرة سانتي .. لون عفني .
- خمسة عشر ،سماكة ستة سانتي . لون زهر .
- خمسة وعشرون ، سماكة أربعة سانتي ، لون بني محروق ..
- ......

ولما فرغت من القراءة دفع رفيقُها إصبعيه الإبهامَ والسبابةَ في مقدمة رقبته فأبعد بهما عقدة الكرافة عن جوزة حلقه ، وقال :

-ولكن نحن لايلزمنا لون الزهر حبيبتي !

فنفضت الصبية رأسها لتبعد خصلة شعر ذؤابتها تكاد تلامس بؤبؤ عينها اليسرى ، وقالت :

- كأنك نسيت أني فصلت تنورة زهر للجامعة ؟

قال الشاب مماحكاً :

- ما شاء الله عليك ! تفطنين للتنورة الجامعية وتنسين غرفة النوم ؟

أجابته الصبية بعفوية بريئة :

- كيف أنساها ؟ لون الأوكر لأيش ؟ هذا مع لون الستائر البيج يجنن .

ووسط دهشتي وذهولي ألقى الشاب أمام البائع شيكاً موقعاً على بياض ، وورقة عليها عنوان شقتهما ، وخرجا . بينما هرع البائع وصبيُّهُ الى الرفوف يقتلعان منها صفوف الكتب الأنيقة . ولما فرغا من العمل لاحظ البائع أني ما أزال متعومداً أمامه ، فسألني وكأنه يراني للمرة الأولى :

-خير إن شاء الله يا أستاذ ؟

قلت : الكتب التي سألتك عنها . قلت لي إنها موجودة ولكن ... لكن ماذا ؟

فقال وكأنه يتابع حديثنا السابق :

- ولكنها راحت مع الطلبية !

السيرك

أحب خروفٌ أبيض اللون أجعد الصوف أن يتفرج على السيرك . كان يقطع شارعاً مزدحماً ، فوجد جمهرة من الغنم تتدافع على باب الخيمة الكروية الغامضة التي طالما سمع بأن ألعاباً خطيرة للغاية تقام في داخلها ، حيث تقف في دائرة العرض ذئابٌ مضحكة تحمل سياطاً مصنوعة من الأعضاء التناسلية للثيران ، وتوعز لحيوانات كاسرة مروضة بإجراء حركات مخنثة ، من مثل تقليد نومة العجوز وعجن الصبية ، الهدف منها جعل جمهور الغنم المتفرج يفرط من الضحك ، إضافة الى جوائز وهدايا تدور حولها دواليب الحظ لتكون من نصيب الجمهور .

تدافع الخروف الأبيض مع المتدافعين ، حتى وصل كوة بيع التذاكر ، فحصل على بطاقة مختومة ومرقومة ، حملها بيده واقترب من الباب الداخلي الرئيسي لخيمة السيرك ، فانحنى له ثعلبان وسيمان يرتديان ثياباً رسمية ، ومدا له أيديهما ، ودَعَواه إلى الدخول ، فدخل .

وما إن لامستْ قائمتُه الأمامية أرضَ الخيمة حتى عاجله ذئب أسمر البشرة ، زرا قميصه العلويان مفتوحان ، وكماه مدروجان على زنديه ، برفسة قذفته إلى وسط الحلبة ، فانخبط بالأرض ونط ، فتناوله ذئب آخر يعتمر قبعة لها

شكل قمع مقلوب إلى أسفل ، من أذنه ، لوح به في الهواء شوطين ، وقذفه باتجاه الباب المقابل للباب الذي دخل منه ، فوجد هنالك ثعلبين وسيمين آخرين ، يرتديان ثياباً رسمية ، انحنياله باحترام ، وأشارا له بالخروج ، فخرج .

مشى مترنحاً ، بينما كان صوت يأتيه من مكان غير محدد يقول له :

ـ إذا تفوهت بحرف أمام أحد فلا تلومنّ إلا نفسك !

كانت عبارة زائدة عن الحد ، فقد كان بطبيعة الحال عاجزاً عن تحريك شفتيه ، مشى يجرجر خطاه حزيناً ، ساخطاً .. ولكن نوبة من الضحك انتابته عندما وصل إلى الباب الرئيسي للخيمة الكروية الغامضة ، ووجد المزيد من بني جنسه يتدافعون للوصول إلى كوة التذاكر .

حضرنا فلم نجدكم

- إلى ابراهيم صموئيل -

أشعلتُ سيجارة وأسندتها على فرضة المنفضة النحاسية أمام المرآة . كنت جالساً على الكرسي . تأملت العيدان الغليظة التي تملأ رأسها الأسطواني تأتيهاالنار فتسودُّ وتفشُّ وتفرز الماء وتنفلش وتنطفىء. أشعلتها مرةً أخرى وأعدتها إلى مكانها . ارتفع خيط دخان مزدوج منها ، قابله على صفحة المرآة خيط آخر مشابه مواز . حملت ساقي اليسرى المنتهية بقدم مضمدة بالشاش واللزاق الطبيين ، ركزتها على الارض ، وانتصبت فوقها . سرى الألم في أنحاء جسدي كله . ثم أوقفت الأخرى السليمة من علة ظاهرة (مع أنها مصابة بـ «تنكُّس المفصل الحرقفي الفخذي المزمن مجهول السبب» على حد تعبير الطبيب العسكري الذي اقترح إحالتي على «الخدمات الثابتة» سنة ١٩٨٢ أيام الاجتياح الصهيوني الفاشستي لبيروت) ووزعت ثقلي على الساقين . نظرت في المرآة . كان وجهي صحيحاً ، مشرقاً ، كالعادة . إن لي وجها خدّاعاً لايسمح للألم أن يظهر عليه ؛ وجهاً مورثاً عن أمي المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله والقضاء خيره وشره من عند الله ،.. أمي عاشت سبعين حولاً لم يَدُرْ على لسانها خلالها غير كلمات الذكر والسماح والدعاء لنا ولأمة محمد بالصلاح والعودة إلى جادة الحق والصواب . قلت : حسناً ، إن الوجه المشرق لخيرٌ من الوجه الكئيب ، والبسمة

تعدي الآخرين مثلما يعديهم الاكتئاب ، والجرب ، وإن ماحصل اليوم على باب «صالة الحرية» يجب أن أستفيد منه تجربة ، ثم أغيبه ، عامداً متعمداً ، في تلافيف ذاكرتي ،..والأهم من ذلك كله ، يجب علي أن أهيء نفسي للانطلاق باتجاه منزل السيدة «ريم» فأفي بالوعد الذي قطعته لها بأن أمر أمام بيتها في تمام السابعة والنصف ، بشرط أن ترتدي هي ثوب نومها النهديَّ ذا فتحة الصدر الطويلة ، وتضع على يسار شعرها الفاحم قرنفلة حمراء ، وأمامها فنجان قهوة تبدأ باحتسائه فور وصولي . إن السيدة «ريم» لاتعرف شيئاً مما حدث على باب صالة الحرية ، وهي من ثم ليست مسؤولة عنه ، لذلك ينبغي ألاتخسر متعتها في شرب فنجان القهوة حتى ولو حُمِلْتُ إلى مقابل بلكونها حملاً .

رفعت السيجارة من الفرضة . سحبت منها سحبتين متواصلتين ، وأعدتها إلى مكانها . نظرت إلى العقوب الميتة في وسط المنفضة . عددتها : خمسةُ عقوب . تدخين ساعة واحدة ، الساعة التي أعقبت تضميد قدمي في المشفى . قالت «ريم» : هذا كثير ، لماذا تدخن هكذا ؟ عندما كنت تأتي إلى بيتنا وتعطيني دروساً باللغة الإنكليزية لم تكن تدخن أبداً . ماذا جرى لك ؟

أما زلت تذكرين ؟ ومن ينسى ! إن هذه المرأة ذات الوجنتين الحمراوين دائماً : والأذن البيضاء أم الحلق الذهبي تتوسطه لؤلؤة صغيرة بيضاء ، والرقبة تكاد تفزُّرُ من امتلاء وبياض .. تعلمت الانكليزية على يدي هاتين . ذِسْ إز أ تابل .. وات إز ذِسْ ؟ تابل . تقول «تابل» وتفلت شفتها وتحرك يدها الصغيرة في عصبية على سطح المنضدة ذي الغطاء الأبيض كأنما لتمتص موجان جسدها الذي يكفي تصُّورُه لإعادة ركبتي عنترة بن شداد العبسي رحمة الله عليه .

جبَّروا القدم دون مخدِّر . المخدر عندهم نفذ ، ورفعوا «طلبية» عن طريق التسلسل .. فماذا تقول ؟ نباشر أم ننتظر ؟ قلت : باشروا الله يعطيكم العافية ويقدرنا على رد جميلكم . طلعتْ روحي الله يشهد . عندما درجَ دولابُ السيارة عليها لم أتألم مثلما تألمت أثناء تجبيرها . قلت للرجل الطيب الذي نقلني بسيارته الى المشفى :

- أرجوك ناولني سيجارة من أحدى العلب التي في كيس النايلون .

اعترض الطبيب :

- التدخين هنا ممنوع .

قلت له :

ـ دخيلك ياعمي الطبيب ، سيجارة بدل المخدر .

ابتسم وقال :

ـ سيجارة واحدة هه !

أشعلتها وقلت للرجل الطيب الذي أسعفتي بينما كان يهرِّب عينيه مني ، كأنه هو الذي هرس قدمي :

ـ ولايهمك . شغلة تافهة !

هز رأسه ، ولم يرد . قلت متابعاً :

- أنت لاتدخن ولاتعرف شيئاً عن اهمية السيجارة عند مَنْ أدمن سمها . أنا لولا هذه العادةُ اللئيمة لما كنت وجُدت في تلك الساعة عند باب «صالة الحرية» ولما كان الذي كان .

قال :

- لاحول ولاقوة إلا بالله ..

وعاد إلى تهريب عينيه مني . قلت :

ـ أأحكي لكم كيف صارت الشغلة ؟ كانت ريم تدفع يدي الزاحفة إلى يدها ، برفق ، وكنت أنا مستبسلاً . قالت : أقعد عاقلاً وخلنا أصدقاء . قلت : أنا دخيل الأصدقاء . ابتسمتْ . قالت ، أنا ماعدت طالبة . صار عندي ثلاثة أولاد . قلت : أعرف ، ولكن خليني ألمس يدك كرمى للرسول ؛ زكاة عافيتك . ألا تنظرين إلى جسدك العامر هذا في المرآة ؟ زَكِّي عنه أحسن ما يبتلى بالأوجاع ، ألا ترين الى شفتيك كيف تلامسان فنجان القهوة لثماً ، ألا تخافين منِ لقوة مفاجئة .. ضحكت . كان في ضحكتها ألف عصفور صباحي .. قالت : طول عمري أضحك وأشرب قهوة و .. أنت شو قصتك اليوم ؟

ـ هكذا صارت الشغلة إذن ؟

ـ لاياعمي الطبيب . «ريم» مالها علاقة . هل تتخيل أن امرأة مثل هذه

تفعل مثل هذه الفعلة ؟ أنا كنت واقفاً بالطابور . دَوْري الرابع . قلت لنفسي عشر دقائق في الكثير وأحصل على خمس علب «حمراء» . الرجال أمامي ووراءي كلهم مدخِّنون ، ويفهمون معنى الإدمان ، ومعنى أن يكون الواحد مقطوعاً من التبغ ، لذلك وقفنا وراء بعضنا البعض مثل الغنم المعبوقة بالحبال استعداداً لحلبها ، ما فيه تدفيش ولا تلبيط . بعد زبون أو زبونين ماج الطابور ، لاح لوحتين وانفلت . وجدنا أنفسنا نهجم على الكوة . كيف ؟ لاأعرف . دفعة ثانية جاءت من الخلف ياعمي الطبيب قذفتني خارج الصف مثل جوف حصرمة عصرتها من الخارج . أعدت الكَرَّة . بعد قليل يقول العامل «تعالوا غداً» ، وأنا لا أمتلك غير سيجارتين . هجمت . السجائر الأمريكية تملأ الأرصفة ياعمي الطبيب ، ولكنها ، أولاً ، غالية الثمن ، وثانياً ، خفيفة جداً ، السيجارة منها تتحول إلى رماد بعد ثلاث سحبات ، وثالثاً ، أنا مقاطع البضائع الأمريكية ! جاءتني نكشة في خاصرتي ، لم أكترث لها . هجمت . سمعت زمور سيارة حاداً . لم يلتفت أحد . لو أن الآخرين ابتعدوا من طريقها لابتعدتُ مثلهم . وضع السائق قدمه على دعسة البنزين وشرع يشفِّط ويتقدم . اقترب مني فهربت جهة الحشد ، كانت قدمي هذه ماتزال خارجاً فأصعد الدولاب عليها . كتمت صيحة كبيرة صعدت إلى فمي . نظرت إليه . قال : «قل : آخ !» . لم أقل «آخ» .قال : «ألم تنكسر قدمك ؟» قلت : «لا» . قال : «ننتظر إذن حتى تنكسر» ، ومد يده الى جيبه ، أخرج علبة تبغ نسل سيجارة ، أشعلها ووقف ينتظر . لا أعرف كم من الزمن لبث ، لأنني عندما صحوت وجدت هذا الانسان الطيب يسندني وينزلني الى هنا ..

انطفأت السيجارة مرة أخرى . أشعلتها ، وحملت المشط وسرحت شعري .

قال لي الرجل الطيب قبل أن يغادر البيت :

- هل تريد شيئاً آخر ؟

قلت له :

- ضع لي علبة سجائر هنا ، ومنفضة . وأغلق الباب وراءك . شكراً .

دخنت خمس سجائر ونمت . افقت على حلم بعيد غامض : أنا في الصف الحادي عشر . الفرع العلمي . المكان . ثانوية معرتمصرين الرسمية . معي فيصل وحمود وأحمد وليد ومحمد مطيع ومحمد طاهر ، وآخرون لم أتبينهم جيداً في الحلم . المدرسة مؤلفة من بناء أساسي وملحق غير مكتمل البناء ، مسقوف ولكنه دون نوافذ وأبواب . السماء تمطر بغزارة ، ونحن تحت السقف . نتر فيصل علبة سجائر بشهامة منقطعة النظير ، وقال : «تفضلوا» . سحبنا كل واحد سيجارة بشهامة مماثلة . الى جوارنا طلاب من الصفوف الأخرى يدخنون أيضاً . الدخان تصاعد من النوافذ والأبواب ، المطر حاول تكسير سحابته . المدير عبد المنعم والموجه قحطان عائدان من دورة المياه ، شاهدا الدخان الكثيف فظنا حريقاً يندلع من الصف السابع المجاور للملحق . ركضا ، دخلا ، وجدانا ندخن . قال قحطان : «لا أحد يتحرك من مكانه !» . أنا أتحرك بسرعة ، أرمي السيجارة من النافذة المفتوحة . ساقانا الى الادارة زمراً . نودي الآذن أبو زهدي وبدأ التحقيق . أنت دخنت ؟ مادخنت ؟ ارفع قدميه . طاق طاق طاق ، تسعة ، عشرة ، انقلع . أنت دخنت ؟ لازم تدخن ، لأنك شاب والشبوبيّة تقتضي منك أن تدخن . ارفعه طاق طاق ..وأنت ؟ تدخن «حمراء» العلبة بليرة ونصف ؟ من أين جيت بحقها ؟ البارحة طالبناك برسم «التعاون والنشاط» قلت أبي فقير . فقير وتدخن حمراء ياحقير ؟ ارفعه . طاق طاق .. وأنت ياحلو ، أرني ، هل تطلع بطول السيجارة ؟ ماشاء الله ، إي أختك إذا شافتك تدخن تعشقك ، ارفعه . وأنت ياذكي يافهمان يامجتهد يادرجة أولى .. علموك التدخين ياسبع ؟ قلت : أنا لم أدخن . قال : أتكذب ؟ قلت : أنا لاأكذب .قال :ارفعه . قلت : أنا لاأحد يرفعني . دفع عبدُ المنعم قحطان من طريقه واندفع نحوي . ماذا تقول ؟ قلت : «القانون» آستاذ لايسمح .. جن جنونهما معا . قال عبد المنعم : أنا .... عليك وعلى القانون يانجس . أنا هنا في هذه المدرسة ما عندي قانون . وألقى بجسده الثقيل الضخم على قدمي المصابة . أمسك بالضماد وشرع يشده بيده . أمسكت يده ودفعتها عن قدمي وخيمت بجسدي كله حول القدم ، وإذذاك تراجع الى الزاوية ، آخرج سيجارة من علبته ، ووقف يلهث ويدخن ..وأما أنا فقد أفقت .

كانت السيجارة قد تحولت الى عقب ، كبستها في أرض المنفضة ولففت رأسي بالشماخ استعداداً للخروج . الشماخ أحمر مخطط اشترته لي أمي قبل أعوام عندما تهورت بي دراجتي النارية على طريق حلب القديم . يومها أصاب رأسي جروح كثيرة . قالت أمي بعد أن دعت الله أن يشفيني عاجلاً : «لو كان رأسك ملفوفاً لوُقِّيَتَ جروح الرأس . الرأس أهم عضو خلقه الله للإنسان» . نظرت في المرآة ..صرت أُشبه إلى حد بعيد الفدائي الفلسطيني . سرت في جسدي قشعريرة من عادتها أن تسري في كلما سمعت خبراً عن ملحمة عظيمة يسطرها هؤلاء الأبطال على صفحات تاريخنا الحديث المليء بالانكسارات . رفعت الشماخ عن رأسي . خفت من شغلة لاتخطر على بالكم مطلقاً . خفت أن يلمحني زميلنا القاص «جميل الفائز» فيجعلني في الحال بطلاً لقصة تدور أحداثها في فلسطين المحتلة ، ويسميني «محمود» ويضعني في مواجهة الجنرال «مردخاي» .. ففي قصصه دائماً يكون اسم البطل «محمود» واسم الجنرال « مردخاي »، يكتب مثلاً : ((عصراً ،

الجنرال مردخاي يحمل عصاه ويضرب بها جزمته ، يتفقد جنوده المكلفين بتكسير عظام أهلنا في الأرض المحتلة . يخرج محمود من مخبئه . جيوبه ملأى بالحجارة ..))

ماذا في وسعي أن أفعل إذا ضبطني ذلك السافل مردخاي محمَّلاً بالحجارة وأنا بقدم مهروسة بالدولاب وساق متنكس مفصلها الحرقفي الفخذي ؟ أأنا قَدّ مردخاي ؟!

رفعتُ الشماخ . حملت ساقي بيديَّ الثنتين وحجلت بها حتى الباب . على الباب وجدت عبارة تقول :((حضرنا ولم نجدكم - أبو رستم)) . مَنْ أبو رستم ؟ أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم . أنا لم أسمع بأحد يحمل اسم «رستم» غير ذلك الملك الفارسي الذي قتله أحد الصحابةفي إحدى المواقع العربية المظفرة ، وصاح : «قتلتُ رستم ورب الكعبة !» . لعله أن يكون الرجل الذي ...طبّ قلبي . أتراه لم يطمئن على انكسار قدمي ؟

ريم تنتظر . دست على القدم المصابة مرة ، مرتين .. تحملت الألم حتى

اعتدتهُ . اشعلت سيجارة أخرى ومشيت . شعرت بأن العالم كئيب ومتواطىء ومظلم ما فيه غير وجه أمي ، وأصابع ريم وأذنها البيضاء ، وهذ الرجل الطيب ، على الرغم من قلة المخدر تحت يده . مشيت . سمعت وقع أقدام متلصصة ورائي ، وشممت رائحة خطو ثقيل . لعله الوهم ، لعله الخوف ؟ نفضت رأسي وأرهفت السمع . الوقع لا ريب فيه . من هذا ؟ خفت . مشيت . أرفع قدمي ليضع قدمه مكانها . أذناي بدأتا تطنان ، وما عادتا تميزان غير دبيب الأقدام الرهيبة . ماذا أفعل به ؟ قل ماذا سيفعل هو بي ؟ متى سيمد يده ويديرني نحوه ثم ينهال علي ركلاً وصفعاً ؟

أنا لست جباناً ، ولكنني خواف . السيجارة أوشكت على الانتهاء والرجل مُصِرٌّ على اللحاق بي وإرعابي حتى الموت . تذكرت أن الخوف لايوقفه غير مواجهة الموقف بما تبقى في الكيان من شجاعة . عندما تنشب الحرب فإن عنترة العبسي رحمه الله لابد وأن يرتجف ، ولكن ، ما إن تبدأ اليد المرتجفة بالضغط على الزناد حتى يفرغ القلب من الخوف وكأنه لم يعرفه قط ، ويصبح قتاله ضرباً من ضروب العمل اليومي المعتاد . لابد لي إذن من مواجهة الموقف بعين مفتوحة على مداها والتفاته خاطفة وصيحة قوية . التفتُّ وصحت به :

- أيش بك ولاه ؟

لَكَمْ كانت دهشتي عظيمة في تلك اللحظة ! الرجل أُجفل ، رَمَح ، اهتز اهتزازَ طفل نائم مررتَ عشبةً على رقبته . رفع يديه الى الأعلى ، وتأتأ ، وفتح عينيه ، شفتاه حاولتا قول كلمة واحدة ولكنهمالم تفلحا . وقفت قبالته لا أعرف ما أقول . ثم خطر لي أن أبتعد عنه قليلاً . ثم قلت له :

- لاتخف يا أخي . إنني تشاجرت اليوم مع رجل هددني بالقتل ، فظننتك إياه يتعقبني ليقتلني . من أنت ؟ وماذا تريد ؟

هدأ الرجل وقال :

- عفوا ياخيي ، والله لاعلم لي بذلك ، لوكنت أعلم ما كنت مشيت وراءك .

قلت :

- لاعليك ، تعال معي واحك لي قصتك . لماذا كنت تتعقبني ؟

أجابني بصوت حزين باك :

– قد لاتصدقني إذا قلت لك إني مشيت وراءك لأشم رائحة الدخان المنبعث من سيجارتك . لقد أمضيت النهار بطوله على باب «صالة الشهداء» ولم أتمكن من الحصول على علبة سجائر واحدة . هل تعطيني سيجارة ؟

آب ١٩٩٠

الناشل

كنت في مكتب الأستاذ صياح الرايق صاحب «دار الرايق للطباعة والنشر والتوزيع» ، أنتظره حتى يفرغ من أوراق كانت بيده ، عندما أطل فجأة من الباب شاب طويل على وجهه علامة تعجب ، نقل بصره بيننا ، ثم قال لصياح :

ـ أستاذ ! فيه واحد اسمه «ناصر عبيدو» يريدمقابلتك ...

قال صياح :

ـ أدخله حالاً ... حالاً !

والتفت إلي وقال :

ـ أرأيت إلى هذا الحمار المعبأ في بنطلون وقميص ؟... الأستاذ ناصر عبيدو ، أهم روائي في القطر ، يريد مقابلتي ، فينظر إلي مثل المهابيل ويقول لي فيه واحد اسمه ناصر عبيدو ويريد مقابلتك ! فظاعة !

قلت مهدئاً من روعه :

- هذا مستخدم صغير ، وما هو ضروري أن يعرف ناصر عبيدو وغير ناصر عبيدو ..

ضرب بقبضته على سطح الطاولة وقال :

- لايجوز ! هذه دار نشر ، ماهي تكية تنابل : الحاجب هنا يجب أن يعرف

كل شيء عن الوسط الأدبي . نحن نتعامل مع بشر مثقفين و ..

في هذه اللحظة دخل ناصر عبيدو . سررتُ لرؤيته شخصياً بعدما تعرفت عليه من خلال مايكتب . في الحقيقة أنا أحب هذا الكاتب ، لأنه صادق مع نفسه ، وما أقل الكتاب الصادقين عندنا . قال صياح وقد تهلل وجهه :

- يا أهلاً وسهلاً بالأستاذ ناصر لا تؤاخذني أرجوك ، الحاجب الذي عندي حَيوان بعض الشيء ، لم يعرفكم . أقدِّم لك الأستاذ حمدان ، كاتب قصة قصيرة ... أنت لاتعرفه بالطبع ، ولكن انتظرني حتى أنتهي من طباعة مجموعته القصصيه الأولى ، وسوف ترى ، إنه شاب موهوب بكل معاني الكلمة ..

قال الروائي وهو يمسك بيدي وعيناه تتأملان منظري الذي أوحى له - على ما أظن - بعكس ما تفضل به الناشر :

- واضح !

تابع صياح :

- هذا من صميم عملنا يا أستاذ ناصر . إنّ نشر عمل إبداعي لكاتب كبير مثلكم هو عمل خال من المعلمية ، فاسمكم وحده كفيل بتصريفه ، إن المعلمية الحقيقية هي في التقاط الكتاب الموهوبين من زحمة الأسماء الهزيلة والمتوسطة . هذا ما أفعله أنا : وهو الأمر الذي عجزت عنه المؤسسات الثقافية الحكومية ذاتها ..

قال ناصر :

- تُشكر !

الروائي ناصر يجيب عن كل حزمة مؤلفة من ألف كلمة من حديث الناشر صياح بكلمة واحدة من قبيل : واضح ، تشكر ، صحيح ، طبعاً ...إلى أن قال صياح :

- ماعلينا أستاذ صياح ، هل قبضت حقوقك عن روايتك ؟

فاعتدل ناصر في جلسته مبدياً اهتماماً واضحاً :

- لا والله يا أستاذ صياح ، لم أقبض شيئاً بعد .

قب صياح وارتسم على وجهه الغضب من جديد :

الله يلعن المحاسب الذي عندي هو الآخر ، قلبه أبرد من طين الشتاء ، أقول له اعمل هذه الشغلة اليوم ، يعملها بعد سنتين ، هكذا لا يجـ ..

قاطعه الروائي بإشارة من يده ، وقال :

ـ ماهي بمشكلة . هل أستطيع أن أقبض الآن ؟

رفع الناشر مؤخرته عن الكرسي رفعةً لم أجد بينها وبين الموضوع أية صلة ، وقال :

ـ طبعاً ، تستطيع ، كيف إذن ؟ هل تطبع كتابك عندنا عن روح المرحوم أبيك ؟ ثم إن دارنا كلها على حسابك ، ونحن لولا الطيبون أمثالك كنا ...

هز الروائي رأسه متأففاً .. ، لاحظه الناشر فتوقف عن اللغو ، وقال :

ـ كيف كان اتفاقنا أستاذ ناصر ؟

قال ناصر بإيجاز وثقة :

ـ تدفعون لي عشرة آلاف ليرة !

وهنا خُيِّل إلينا أن الناشر صياح قد جُنّ : نط من كرسيه وقد تلخبطت معالم وجهه . انبرم فمه تلقائياً ، وأطلق صفرة طويلة .....، واندفع يقول :

ـ تسعة آلاف ليرة ؟ ماهذا ؟ لاتقلها أرجوك ! أو قل إنك تمزح . آ ؟ أتعرف ؟ صار عمري ثلاثة وخمسين عاماً ، وصدقني هذه أول مرة أسمع فيها رجلاً يلفظ عبارة «ثمانية آلاف ليرة» على هذ القدر من اليسر والبساطة . نعم ؛ حضرتك ، لفظتها ببساطة عجيبة . هل يمكنك إذا سمحت إعادتها علينا كما فعلت قبل قليل ؟ «سب ..عة ..آلا ..ف لي ...رة !» قلتها مثل كرج الماء ، عن ظهر قلب .. وهذ بالنسبة إليك أمر طبيعي ، لأنك في الحقيقة لاتعرف شيئاً عن ضخامة الرأسمال الذي وظفناه في هذه الدار ، ولا عن الصعوبات التي نعانيها حتى نوصل الكتاب للقارىء ، كتاباً منظفاً مقطفاً مثل الفلة ، لاتعرف أننا نشتري الورق من السوق السوداء ، وبالدولار ، السوري واللبناني أكثرهم لايتعاملون به ، ادفع لهم دولارات أو دعهم يقيسون عرض كتفيك .. لاتعرف شيئاًمن هذا قطعاً ، فلو كنت تعرف لعددت حتى الرقم «ستة آلاف» قبل أن تأتيني فاتحاً يدك مثل جرن الحمَّام ، قائلاً : «هات ستة آلاف ليرة !» .

لاتؤاخذني يا أستاذ ناصر ، وأنت ياحبيبنا حمدان ، بضاعتكم أنتم الكتاب ، ماهي ؟ أتقول لي أم أقول لك ؟ بضاعتكم ياسيدي هي الحكي ! عفواً ، إذا كان عندكم شيء غير الحكي قل لي حتى أعتذر لك وأبوس يدك وأدفع لك خمسة الآلاف التي تطلبها وحبة مسك فوقها .

ياابني ياحمدان ، هذا الأستاذ ناصر يظن أن المطبعة التي نطبع عليها الكتب فيها إمكانية طباعة العملة أيضاً . أنا واثق من أنه كان يفكر على هذا النحو قبل أن يشرفنا بزيارته قبل قليل ، وواثق من أنه قال لنفسه : (ماداموا يطبعون العملة طبعاً ، فإن دفع أربعة آلاف ليرة لي عن روايتي لن يؤثر على ميزانيتهم أبداً !) .. وقد ترجم هذا الظن إلى جملة مفيدة ، موجزة ، وموجعة ، فقال لي دون مقدمات : «اتفقنا على ثلاثة آلاف ليرة» ، قالها مرتاح البال مطمئن الضمير .

يا أستاذ ناصر ، أنت عايش في هذا البلد وتعرف البئر وغطاءه ، والحال من بعضه يا صديقي ، وإذا كنت أنا صاحب دار نشر فإن هذا لايعني أني قاعد دون مصروف . اليوم صباحاً ، قبل أن نستفتح الرزاق ، لاقت لي أختكم أم عدنان وأفهمتني أنها اتفقت مع الجيران أن تصحبهم في سيارتنا مشواراً الى الربوة ، قالت لي : حرام ، نحن عندنا سيارة ، وهم ما عندهم سيارة .. قلنا لها : بسيطة ، خذيهم ! لن أحكي لك عن التفاصيل حتى لايوجعك رأسك ، ولكنني أقول إننا طيّرنا خمسمئة ليرة ونحن مانزال على الريق !

نعود إلى موضوعنا : أنا أرى ، والأخ حمدان يحكم بيننا إذا أنت لم تقبل بحكمي ؛ أرى ألا نُميت الذئب ولانفني الغنم . أنت تقول : «أريد ألفي ليرة» ، وهذا كثير ، فتعال نقسم البيدر مناصفة : تسامحني بألف ليرة ، وأدفع لك خمسمئة شقفة واحدة .. ما رأيك ؟

كرر الناشر صيّاح سؤاله عدة مرات ، معتقداً أن الروائي ناصر مستغرق بالتفكير في اقتراحه .. ولكنه لم يكن قد لاحظ وهو في غمرة استرساله في محاضرته كيف سَلَتَ في كرسيه مغمياً عليه . وعندما نَبَّهْتُهُ الى ذلك ، رن جرساً معلّقاً في

المكتب . فاطل الحاجب المدهوش . فقال له صباح :

- اطلب له الإسعاف !

والتفت إليّ قائلاً :

- وأنت ياحبيبي حمدان ، بالنسبة لمجموعتك القصصية ، هل تذكر كيف كان اتفاقنا ؟

١٩٨٩/٤/٨

مقهى القصر

(معرتمصرين ـ السوق الجواني ـ دكاكين عمر مسكين ـ مقهى القصر)... كان الأجدر بهم أن يسموه «مقهى الكوخ» أو «مقهى الطفر» أو «مقهى الشاي المكرر» ... ولكنهم أكرموه مثلما يكرمون الولد الغبي بتسميته « ذكي » أو « نبيه » أو قل إنهم لطفوه تلطيفاً مثلما يلطفون اسم الجرب بتسميته «تحسُّس» !

عشر طاولات أخفيت قباحات سطوحها بسجادات تعليق عليها صورة نمر غضبان ، مثبته بمطاط ارتخى من فرط ما نلعب به : نشده الى أقصى ماينشد ، ثم نرخيه ليضرب خاصرة السجادة ، فوق رقبة النمر ، لننقل الغبار العالق بها إلى ثيابنا .

خمسون كرسياً من النوع «القلطق القشي» لواحدها إمكانية احتضان أكبر عجيزة ممكنة .

طربيزات طويلة رفيعة تقف على ثلاث قوائم ، باستعداد لأن تسقط بأقل نكشة ، لتحصل على إثر ذلك مشادة بهياط ومياط تنتهي في الأغلب بإرغام زبون أو مجموعة زبائن على دفع ثمن ما انكسر من الكؤوس والفناجين والأطباق .

بوفيه صغيرة تصل الأراكيل الى سقفها ، يقف في داخلها ، على الدوام ،

السيد (زيدان الكيال) في حالة حركة دائمة : يصب الشاي من ابريق أزرق مطعوج في الكؤوس ، ثم يصب ماء ساخناً مكان الشاي من إبريق رمادي كالح ..

بجوار البوفيه باب ملغى بقطعة خشب عرضانية . هذا كان باب مرحاض ألغاه أبو حسني صاحب المقهى بعد رجاء حار من زيدان الكيال وتهديد منه بترك العمل ما دام المرحاض قائماً ، لأن رائحة النشادر صرعته صرعاً . وقد أوضح زيدان لأبي حسني أن النشادر يوجد في بول الذكور أكثر مما يوجد في بول النساء ، إضافة الى أن الذكور يعملونها على الواقف فيطرطشونها في الحيز الضيق وهم يتبولون أكثر مما تتبول حارة بكاملها ، وهو ، زيدان الكيال ، يعرف أكثر مما يعرف أي مخلوق على وجه الأرض مقدار ما يشربون من الشاي المكرر .

إلغاء المرحاض اضطرنا نحن الزبائن الى إفراغ مثاناتنا على جدران الدكاكين في دائرة نصف قطرها حوالى خمسين متراً حول المقهى .

وفي المقهى ، على رف خشبي بني اللون ، جهاز تلفزيون (أبيض وأسود) من الدفعة التجريبية الأولى لمعمل سيرونكس الوطني ، مضى على وجوده هنا أكثر من خمسة عشر عاماً ، يمتص الدخان والغبار ، لايشتغل إلا إذا لكمته بقبضة يدك اليمنى على خاصرته اليسرى ، فيبدأ ببث صورة راقصة لأخيلة يستحيل معرفة رأسها من أساسها مرافقة بصوت يشبه نَعْوَصَةَ الجراء الصغيرة .. ثم تضربه بكفك على سطحه الأعلى ، فيشتغل على نحو جيد جداً ، ولكن على نصف الشاشة الأسفل ، بينما يبقى نصفها الأعلى أسود مرقطاً بنقاط بيضاء لماعة كحطام البرق ، ساعة أو نصف ساعة ، ثم تنتظم الصورة وتنتشر على الشاشة كلها ، وتكون واضحة كل الوضوح ، إلا أن الوجوه البشرية تظهر أطول مما هي عليه في الواقع .

الجدران مطلية بدهان زياتي لماع تسيل عليه خطوط صفراء قاتمة تتشكل من الاحتباس الدائم لقطران السجائر والأراكيل في جوف المقهى .

على أحد الجدران كتبت التعرفة المخصصة لمواجهة دوريات التموين بخط تحتاج قراءته إلى خبير جنائي .. ولكننا نحن استطعنا فك رموزها من تكرار المحاولة :

تعرفة :

الشّكلة : ليرتان

مشروب شاي : نصف ليرة .

كازوز ولبن وزهورات : لايوجد عندنا .

قهوة . لايوجد عندنا .

نَفَس أركيلة ، التنباك من عندك : ليرة ونصف

نفس أركيلة ، التنباك من عندنا: ليرتان ونصف .

يليها على الجدار ذاته عبارة مكتوبة بخط واضح : (ممنوع التبزيق على الأرض) يليها الى الأسفل صورة لسميرة توفيق وهي في حالة ضحك عريض وكتفاها ملتصقتان برأسها مما يحمل على الاعتقاد بأن الصورة التقطت لها وهي تغني : وح وح ..

لايوجد نظام محدد لوقوف الطاولات والقلاطق والطربيزات . الرواد الأوائل الذين يأتون في حدود الثالثة ظهراً يجرونها إلى حيث يروق لهم الجلوس ، ثم يبدأ لَزُّ الطاولات اضطراراً ابتداء من الساعة الرابعة حينما يزدحم المقهى بالشلل الرئيسية : شلة هاشم الطشم وشلة إبراهيم الكخ وشلة نايف الجحش وشلة صفو الفلتان وشلتنا نحن التي كان الآخرون يطلقون عليها اسم «شلة الأساتذة» وأحياناً «شلة الكرافيتات» هذا مع أننا لم نكن نضع ربطات عنق أبداً ، وهي شلة مؤلفة من عشرة رجال ، متزوجين وأعزاب ، يحملون شهادات علمية تتراوح بين الدبلوم والثانوية العامة ، لايختلطون بأفراد الشلل الأخرى أبداً ، لا لأنهم يتكبرون عليهم ، بل لأن أفراد الشلل الأخرى كانوا لايتعاطونهم ، فلكل كرامته ، وكل ديك على مزبلته صياح

يدخل ولد يرتدي ثياب المدرسة ، يغرز عينيه في سحابة الدخان بحثاً عن أبيه ، وعندما يجده يقترب منه ويوشوشه بكلام يجعل الأب يُنهض عجيزته عن القلطق قليلاً ويمد يده الى جيبه ويخرج بعض النقود يناولها للطفل ويستأنف لعبه بارتياح من أزاح عن كاهله جبلاً !

يدخل حميد الأحمد من الباب وهو يفقس بأصابع يديه الثنتين . يتوقف في المجرى قليلاً ، ثم يبدأ الدوران على طاولات الشلل ، يقرص هذا ويدغدغ ذاك ويقول لأبي رشيد وهو يفرك له رقبته الثخينة :هذه الخانوقة ستخنقك إن عاجلاً أو أجلاً . ويتركه ويتجه الى شريف المنقار ويقول له : كيف منقارك اليوم ؟ ثم يلتفت إلى مكان لايقف فيه أحد ويقول مخاطباً شخصاً وهمياً : تعال ، شريف يناديك !

في جانب المقهى يتغلب الطشم على الكخ بطاولة الزهر فينهض عن القلطق ويغني وهو يهز خصره :

شُفْ كلبك يا بو سلوم

أزعر وذنبه مقطوم

ويصيح خالد العجم بخصمه صبحي الرزة : شيش بيش يا حمار ! ويقرقع بضحكة ليس لها شبيه في العالم ، ويضرب حجره فوق حجر صبحي ، فتنط الأحجار في الهواء وتنزل على الأرض وينزل الخصمان معاً تحت الطاولات بحثاً عن الأحجار وفردتي الزهر .

في شلة الكرافيتات يقف (أبو أفضوكة) على قدميه حاملاً ورقة مخفيّة بيده اليمنى ويهدد خصمه إن هو رمى «الشايب» بأنه سيمعسه حالاً بالآس : يا الله ولا مرفوس ،طب !

كنا في تلك الأيام لا نعلم أن في خارج حدود مقهانا التعيس وبلدتنا الصغيرة النائمة بلاداً وأماكن فيها رجال يتأبطون أذرعة نساء لسن زوجاتهم ، ويتمشون معا في الشوارع ، ويختلون ببعضهم بعض في البيوت ويعملون ما تمليه عليه رغبات الحياة الجامحة ، يشربون ويرقصون ويسعون الى آفاق يرسمونها بأيديهم . كنا نظن أن نهاية العالم هنا ، في بلدنا الصغير حيث الشاب يخرج الى الشارع ملسوعاً بما في جواه من نيران ، يمر في زاروب موحش في الظهيرة الحارة تقف بأحد أبوابه بنت صبية ، تبتسم له ويهبط جسدها تحت وطأة مروره الفحل الجميل ، فيصل نهاية الزاروب ويعود ليشهد تكرار هبوط الجسد الغض ، ولكنه يجد بدل الصبية مَنْ يهرسه هرساً ، فيعلن التوبة على القبلة الشريفة ويهرع إلى أقرب بقالية يشتري علبة سجائر ويقول : أين أنت يا

هكذا كنا نترك بنات بلدنا الجميلات لاكتفائهن الذاتي المرير، وانفسنا لاكتفائها الذاتي المرير .

وكنا سعداء ، لانحب أن يشغلنا عن محرقتنا شيء .

وفي عصر يوم من أيام تشرين الثاني القارسة ، دخل المقهى شرطي . كانت السماء تؤدي مطرتها السنوية الأولى التي يسميها الفلاحون «مطرة المسطاح» .. وكان صبي المقهى (مراد) قد رش أرض المقهى بنشارة الخشب الزاهية التي كنا نفرح ونحن نرى بصمات أقدامنا عليها . وكان قد أغلق كل المنافذ . وكان الدخان عابقاً . ودخل الشرطي . توقف الجميع عن اللعب وتعلقت الأعين به .

لم يكن ذلك لأنه شرطي ، فقد كان يدخل الى المقهى يومياً : رجال شرطة وجباة ضرائب وتجار وسماسرة وأولياء تلاميذ وأصحاب مهن حرة ومدنيون متنوعون ، يأتون إلى المقهى لمواجهة أحد الزبائن بشأن قضية ما ، يأتون واثقين كل الثقة من أن «عميلهم» إذا لم يكن قد مات فإنه موجود في المقهى حتماً .

الشرطي لفت الأنظار ببدانته المفرطة : كان مغزلياً تماماً ، جسده يتألف من دوائر متناهية أكثرها اتساعاً دائرةُ خصره .

الباب عريض ، دخل الشرطي منه بارتياح . دخل فخرجت كمية من الدخان تعادل حجمه تماماً (بحسب نظرية أرخميدس في انزياح الكتلة) . ثم شرع يعبر المجرى بين الطاولات المتلازّة ، على نحو جانبي ، لأنه كان من المستحيل أن يعبر بطريقة أخرى ، وأسقط طربيزَة عليها كأس ماء عند طاولة الكخ ... حتى وصل الى البوفيه حيث يقف صاحب المقهى أبو حسني يراقب حركة العمل .

أخرج الشرطي ورقة مطوية ، فضها ، وناولها لأبي حسني ، أتبعها بقلم أزرق ناشف . قال له كلاماً لم نفهمه ، فوقّع أبو حسني على الورقة بيد مُنْخَلَّة .

اضطربت الأحوال ، ورافقنا الشرطي بأعيننا حتى خرج من الباب ، فأعدناها الى أبي حسني الذي تقدم الى الوسط وقال بصوت كاد لايتجاوز

شفتيه .

- بعد اليوم ، مقهى قصر . مافيه .

وبلع ريقه في صعوبة وأضاف :

- الآن وقَّعت على الإنذار ..هدم ..

وخرج .

سقط كل شيء من أيدينا .

أفواهنا فتحت من تلقاء ذاتها .

تسمرنا في أماكننا لدقائق .. ثم شرعنا نخرج من الباب تباعاً .

المجلة

(١)

عندما توقف ضجيج الآلات ولغط العمال ، قالت نسخة من مجلة «التوجه الجديد» لنفسها :

ـ أف ! ماهذه الحياة التي كلها دعك وقص وكي وجعلكة وتحزيم !

سمعتها أخت لها مواسية :

ـ لاعليك . غداً ترتاحين على رف مكتبة عامة في مدينة ما !

(٢)

كدس عامل الطباعة النسخ ، فأصبحت (النسخة) فوق أخواتها . قالت للنسخة التي تحتها :

ـ شكراً لك يا أختاه . لقد ارتاحت عظامي عليك أترانا نلتقي ثانية ؟

قالت النسخة القابعة تحت وهي تتوجع :

ـ سنلتقي بالتأكيد !

ـ متى ؟

ـ عندما نصبح مُرْتَجَعات !

(٣)

انغرز خيط المصيص في خواصر (النسخة) من الجهات الأربع . أَنَّتِ (النسخة) وقالت له :

- تباً لك . هل تظننا سنهرب إذا أنت لم تَفْرِ خواصرنا ؟

قال الخيط :

- رضينا بالهم والهم مارضي بنا .

وأرخى مفاصله وشرع يطقطق حتى انداحت النسخ على أرض المستودع .

(٤)

قرأ سائق سيارة توزيع المطبوعات قائمة المطبوعات الواجب نقلها إلى المحافظات الشمالية . وقع بصره على خانة كتب فيها «٥٠٠ نسخة من التوجه الجديد» . وضع يده على بطنه وقال للموزع الرئيسي :

- أنا جاي حتى أعتذر . عندي مغص شديد . دبروا غيري .

(٥)

قال صاحب المكتبة للقارىء المدمن :

- وصلني عدد جديد من مجلة «التوجه الجديد» .

ولأن صاحب المكتبة يعرف أن هذا القارىء المدمن لايشتري مجلة دون أن يطلع على موضوعاتها ، فقد شرع يقرأ له عناوين المواد وأسماء كتابها :

- سنتان من حجر ، بقلم رئيس التحرير نجيب سلامية الاصبع .

- تطور الأدب النسائي في البلاد ، بقلم سكرتير التحرير عبد الله صاحب المزاج .

- أدب المرأة الصغيرة ، بقلم نائب رئيس التحرير عبد اللطيف الجنكنا .

- المفهومية في ظل الدراسات البنيوية ، بقلم صفوان بن بعير .

- النقد المستمر للإبداع المتواصل ، بقلم الناقد المتواجد دردشة نفسي الحسام .

-الأنسنة الأسلوبية المتراتبة جداً في قصص جميل الفائز بقلم الدكتور مهند الناشف الوجه .

-مراجعة قصص «التوجه» السابق بقلم الدكتور نعيم الكرملي .

-كيف تصنعُ وسائل الإعلام الأدباء الهائفين ، بقلم الأديبة الكبيرة بالسن شمس الوزاني .

(لاحظ صاحب المكتبة الملال على وجه القارىء المدمن فلجأ الى الاختصار)

- وفي العدد قصص لكبار كتاب البلاد جميل الفائز ويحيى الغريبي وصهيب زكريا الأسطة وعجيب سلام الدين ، وقصائد شعرية لنسيم الحجري وسعيد أبو طبلة ونوف هود ولطيفة مسعود .. فما رأيك ؟

قال القارىء المدمن :

- جميل !

قال صاحب المكتبة مصححاً :

- لا والله ، الشاعر جميل المنزلي لم يساهم في هذا العدد . لماذا برأيك ؟

(٦)

خرج القارىء المدمن ودخل رجل يدعى «حمد» يعمل في تجارة القرطاسية . حمل صاحب المكتبة نسخة «التوجه الجديد» وألقاها على الجام الزجاجي ، فأحدثت صوت : (بُبّ) . أجفل حمد تاجر القرطاسية وقال :

- ماهذه ؟

قال صاحب المكتبة :

- هذه مجلة !

- ولكنها ثقيلة جداً . يعني ، مثلما تقول فيها نصف كيلو ، أو أكثر .

قال صاحب المكتبة باندفاع :

- إي ، وفيها ٤١٢صفحة ، وكلها على بعضها بعشرين ليرة .

ضحك تاجر القرطاسية حمد وقال :

ـ بعشرين ؟ أقسم بشرفي أني أشتريتها منك بمئة ليرة . ولكن بشرط !!

قال صاحب المكتبة : وما هو هذا الشرط ؟

قال حمد :

ـ أن تعطيني إياها نظيفة من كل هذا الكلام !

إدلب ٢/٥/١٩٩٠

ثلاثية الأدوات

١ ـ بالجفت :

حردت (جوهرة) من بيت الزوجية على إثر حفلة الضرب الصاخبة التي أقامها لها زوجها (عبد الجبار) إذ ضبطها واقفة على النافذة عند الغروب .

لجأت الى بيت أهلها .

قالت وهي تبكي وتشهشه إنها هددت زوجها بأنها ستشكوه لأبيها فقال لها : طز !

كبرت القضية في رأس أبيها وقال لها : اقعدي هنا ، بيتي ملآن بالخبز ، وأما زوجك الكلب فأنا أريه قيمته ، أنا لاأكون رجلاً يضع على رأسه حطة وبريماً إذا لم أرغمه على بوس حذائي !

في اليوم التالي ، جاء عبد الجبار بيت عمه ، متمنطقاً بالجفت ، متزنرا بصف الطلقات ، وأعلن ، دون أن يرمي السلام ، أنه يريد زوجته حالاً .

قال العم : ليس لك في هذا البيت زوجة !

قال عبد الجبار : بل لي فيه زوجة بحجم البقرة الهولندية !

قال العم : لك هذا الحذاء تبوسه قبل أن تأخذ زوجتك !

قال عبد الجبار : لاتحكِ معي كبيراً ، فأنت بالذات تعرف أن جوهرة زوجتي،وأني دفعت مافوقي وماتحتي حتى أخذتها .

قال العم : وإذا لم أعطك إياها ، ماذا تفعل ؟

قال عبد الجبار : أقتلك !

قال العم : تقتلني ؟ كيف تقتلني ؟

قال عبد الجبار : أقتلك هكذا : أكسر الجفت وأسحب طلقة من الحزام ، وأدكها في أول عينة ، وأسحب أخرى وأدكها في الثانية ، ثم أعيد الجفت الى وضعه الأول ، فيصبح جاهزاً للإطلاق ، فأضغط على الزناد الأول (بُمّ) وأضغط على الثاني (بم)

وتركه يتخبط بدمه وولى هارباً .

* * *

٢ - بالكسرية :

اشترى (صنطيفان) كرشة خروف ، خبأها تحت قمبازه ، ومضى الى البيت سالكاً طريقاً جانبية حركةُ الناس فيها قليلة .

صطيفان يحب كرشة الخروف : أم العيال تنظفها جيداً وتحشوها بالرز واللحم وتقليها بالسمن العربي . فكيف لايحبها ؟

ولكنه دائماً يتردد قبل أن يشتري واحدة منها . ففي هذا البلد أناس ثقيلو الظل ومع ذلك يظنون أنفسهم ظرفاء ، ما إن يرون رجلاً يحمل كرشة حتى يبادروه بالقول : «مابيده في لحيته !»

مشى صطيفان في ظل الحائط ، محكماً إلقاء طرف القمباز على الكرشة .

وقبل أن يصل البيت التقى ابن حميه مصطفى .

استوقفه مصطفى وبدأ يلح كي يعرف ما يخبىء تحت القمباز .

قال صطيفان أخيراً: كرشة . تفضل عندي على العشاء .

قال مصطفى : مابيده في لحيته !

غضب صطيفان وقال : عيب يامصطفى أنا زوج أختك .

كرر مصطفى قوله : مابيده في لحيته !

نتر صطيفان نفسه من ابن حميه وهرع الى البيت . ألقى الكرشة في أرض الديار ودخل غرفة المجلس مثل السهم . وخرج مثل السهم أيضاً وفي يده البارودة الكسرية . وجد زوجته في طريقه فقال لها :

- ألن تخرجي في جنازة أخيك مصطفى ؟

شهقت الزوجة وقالت : مات ؟!

قال صطيفان : لم يمت بعد ، ولكنني سأقتله بعد قليل فاستعدي !

وخرج إلى الزقاق مثل السهم .

* * *

٣- بالفأس :

استيقظ المواطن (محمد حمدو) من نومه في الصباح الباكر كعادته . غسل وجهه ، وشرب الشاي ، وقتل زوجته بالفأس ، ومضى الى عمله اليومي كالمعتاد .

صحا الأولاد فوجدوا أمهم مقتولة ، ولولوا . سمعهم الجيران ، التموا حولهم . الجيران أبلغوا الشرطة . الشرطة جاءت البيت ونظمت ضبطاً بالحادثة . الضبط أحيل إلى القصر العدلي . القصر العدلي كان شبه مغلق بسبب العطلة القضائية . موظف الديوان المناوب اتصل بوكيل النيابة المناوب في البيت . وكيل النيابة حضر وأمر بتشريح الجثة . الجثة لم تكن في حاجة إلى تشريح ، لأن القتل تم بالفأس !

وكيل النيابة أرسل شرطيين الى محمد حمدو . بعد قليل وصل محمد حمدو مخفوراً ، وعيناه ممتلئتان بالدهشة والاستغراب إذ وجد كل هذه الجموع في داره . سأله وكيل النيابة :

- أنت محمد حمدو ؟

قال محمد حمدو : أي نعم ، أنا محمد حمدو ، خير إن شاء الله يا أستاذ ؟

قال وكيل النيابة : سلامتك ، لاشيء يستحق الذكر .. كل ما في الأمر أنك قتلت زوجتك بالفأس !!

- فتح محمد حمدو عينيه حتى كادتا تخرجان من وقبيهما وسأل :

- ماتت ؟!!

قال وكيل النيابة : أي نعم ، البقية في حياتك ! ماتت . هات احك لنا الآن كيف قتلتها .

وهنا جثا محمد حمدو على ركبتيه ، ورفع رأسه الى أعلى ، وغرّبت عيناه ، وشرع يحدث نفسه قائلاً : آه ياربي ، كيف ماتت ، ولماذا ؟ ياربي أنت تعلم أني أضربها ، بالفأس ، كل يوم ، منذ تزوجتها ، ولكنها لم تمت قبل هذا ، ولامرة ، فماذا جرى اليوم حتى ...

ووقف فجأة وتقدم من وكيل النيابة وسأله بذعر :

- يا أستاذ ، بشرفك ماتت ؟ عليك الطلاق ماتت ؟

ووقع على الأرض .

إبرة بالعضل

إن الطريقة التي قُرع بها باب الدكتور «عبد الجليل» في عصر ذلك اليوم من تموز كانت غريبة للغاية ، لابل يستحيل أن يكون مثلها قد جرى على باب أحد ما ، في يوم من الأيام : يدٌ تضغط الجرس الخارجي الذي يعطي كل ثلاثة ثوان ضربة واحدة قوية يتبعها صدى كصدى الجاز ، يد أخرى على الجرس الداخلي الناعم الغرّيد اللحوح ، وهذا لايمكن لأحد الوصول إليه مالم يقلب من فوق السور ، وبالأخص أن عبد الجليل كان قد أقفل الباب الخارجي بيده قبل أن يتوجه الى سريره لينام ساعتين جوياً على عادته كل ظهيرة ، خَبْطٌ بأربعة أقدام ، أو ربما ستة أوثمانية - هو لايستطيع أن يحدد بدقة - على البابين معاً ، الباب الخارجي الحديدي ، والباب الداخلي الخشبي ، أضف الى أن الأيدي التي لم تكن مشغولة بالضغط على أحد زِرَّي الجرسين كانت لابد تشارك في صناعة هذه الفوضى العجيبة .

نط عبد الجليل من سريره مذعوراً . ما هذا ؟ إن بيته قد اجتيح بالتأكيد ، ويبدو أن هؤلاء (الغزاة) مستعجلون إلى حد أنهم لن يمنحوه فرصة لتبديل سرواله الذي أصبح في حاجة الى تبديل مُلِحّ ، كما تتوقعون !

- طيب طيب !

هكذا صاح بأعلى صوته ، عساه يُبْلِغ الطارقين الصناديد بأنه قد سمع ركض الى خزانة الملابس لاهثاً ملهوجاً : ((بَلِّطوا البحر ! سأغير السروال أولاً ....)) ، ثم ركض الى الباب وهو يسوي ثيابه . فتح . تجمد كل شيء : الأيدي والأقدامُ والرُّكَبُ والقبضات وحتى عيون ثلاثة الرجال المرتدين قنابيز طويلة مفتوحة من الأمام وحطاطات بيضاء نظيفة تعلوها عقالات منكسة جهة اليسار . قال بصوت مزيج من الرعب والبكاء والاحتجاج والسخرية :

ـ خير إن شاء الله ياشباب ؟

أدار اثنان منهم أعينهما جهة الثالث الذي فهم عبد الجليل أنه كبيرهم وأبرزهم . قال الأخير :

ـ السلام عليكم !

أدرك عبد الجليل الآن ـ من حسن حظه ربما ـ أن الأمر ، على الرغم من كونه مزعجاً ، لاينطوي على قذارة ، وإنما عل الكثير من الغشم وشيء من الطرافة . قال :

ـ وعليكم السلام ياسادة ياكرام . لماذا لم تمهدوا لهجومكم بالمدفعية الثقيلة ؟ لكنتم هدمتم البيت وانتهى الإشكال !

فنجر كبير الرجال عينيه شائلاً أحد حاجبيه الى أعلى ، وكزَّ على شفته السفلى معاتباً :

ـ معاذ الله أن نضرب بيتك بالمدفعية ياحكيم ، نحن رجال أصحاب نخوة شرواك ، وجنابك ما عرفنا عنك إلا كل طيبة وآدمية ، بس صاحب الحاجة ، مثلما تعرف ، أرعن ...

قال عبد الجليل وهو يزفر بقايا غيظه : .

ـ لماذا جئتم إذن ؟

ـ من أجل أبينا ياحكيم طال عمرك ..

ـ أيش به ؟

ـ سلامتك ياحكيم . نريد أن تتفضل معنا إلى الضيعة ، وتعاينه ، وتضربه أبرة !

- إبرة ! إبرة شو ؟

- حي الله ابرة ، الإبرة ال تطلع من خاطرك !

- ألا يوجد عندكم ضرّاب إبر في الضيعة ؟

- فيها واحد ، لكن ، نحن نريد أن يضربه الإبرة حكيم.لانريد ضرّاب الإبر .. ومن جهة ..

توقف الرجل عن الكلام فجأة ، ضم يده في عبه وأخرج رزمة نقود كبيرة قدمها لعبد الجليل ، واستأنف يقول :

- الشغلة ماهي شغلة مصاري . رُحْ معنا وكل شيء لخاطرك ..نحن ال يهمنا أبونا .

- وإذا رفضت ؟

- لا يا حكيم ، غير معقول أبداً ، فأنت حكيم ، ومسلم ، والمسلم لايتأخر و ...

- طيب طيب . معكم سيارة ؟

- .....

عبد الجليل لم يَقْضِ العجب من هذه القصة حتى تاريخ روايتها لنا ، بعد مضي اثنتي عشرة سنة على وقوعها . قال :

- والله اني لم آخذ منهم قرشاً واحداً ، وأركبتهم سيارتي ، ومضيت بهم إلى قريتهم «المرجانة» . أمسيت محترقاً بفضول لاينطفيء : أبوهم مريض ؟ طيب . وافرض أنه مكرسح . كيف جاؤوا إلي هُمْ ؟ لماذا لم يحضروه معهم كسباً للوقت ؟ لماذا لم يحملوه الى المشفى ؟ ثم لماذا ينكسون عقالاتهم ، والعقالات لاتنكس إلا في مناسبة خَرق العرض أو الهزيمة في معركة ؟ كنت أسوق السيارة والرجال يوزعون أعينهم خارجا من النوافذ . ولماذا ذكروا لي كلمة «مسلم» ؟ ما علاقة إسلامي بمرض أبيهم ؟ وهل لكلمة مسلم علاقة بتنكيس العقالات ؟ أنا قلت وقتها : (لها علاقة).وحلّلت الأمر على النحو التالي : قلت نحن في تموز ، والدنيا حارة ، والقرى وصلتها الكهرباء ، وهؤلاء قوم اغنياء ، يعني أنهم يمتلكون جهاز تلفزيون ، يعني أن واحدة من بناتهم ، فرضاً ، كانت قاعدة تتفرج على فيلم

عربي نصفه بكاء ونصفه الآخر بوس ورقص وعشق وغرام ، قامت البنت اشتعلت ، وبالمصادفة قُرع الباب ففتحت وتناولت الطارق من الباب .. واحد فاعل خير ، راح لأخيها ووشوشه بكلمتين وشـوش أخويـه ، قالوا مالنا غير أن نجيء بطبيب مسلم يفحص البنت ، فإذا ثبت الأمر فإن ذبحها أهون علينا من شرب الماء ، وإذا لم يثبت ذبحنا الرجل الذي افترى عليها وَحَسَبْنَا أن الله لم يخلقه أساساً ! وقلت لنفسي : (فهل عرفت ما هو المطلوب منك ياعبد الجليل ؟) سألتهم :

- ألوالد حرارته مرتفعة ؟
- آ ؟ لا والله ياحكيم . بالعكس !
- منخفضة ؟
- يعني .
- من أي شيء يشكو ؟
- والله يا حكيم لايشكو من شيء أبداً .
- كيف عرفت أنه مريض إذن ؟
- عرفنا هكذا ، يعني ..

وصلنا الضيعة . دلني أحدهم على الطريق الى البيت . وصلنا . شاهدت مازاد حيرتي أكثر : البيت كان مكتظاً على نحو لايوصف . أستطيع أن أقول إن الضيعة كانت في البيت عن بكرة أبيها . رجال هم الآخرين ينكسون عقالاتهم كانوا منتشرين أمام باب الدار وفي الفناء الواسع ، نسوة يملأن الشرفة العليا والأسطحة أعينهن منتفخة كأنهن كن يردن البكاء ولكنهن مُنعن منه بقوة قاهرة ، أولاد متخشبون في كل مكان ترتسم على شفاههم مشاريع ابتسامات بلهاء . قال الرجل الكبير :

- طريق للحكيم .. بعدوا هيك !

فانبعثت حركة مفاجئة ، تلقائية بين الواقفين في الفناء تشبه حركة الشخصيات المرسومة رسماً في أفلام الكارتون . وأضاف :

- هاتوا الرِّجال .

ووضع يده وراء ظهري وقال لي :

- تفضل ياحكيم . جَهِّز الإبرة إذا أمرت . لكن لاتضربه إياها حتى أقول لك !

كان يتوسط أرض الغرفة فراش طويل في داخله انسان مغطى تماماً . قلت :

- هذا هو أبوكم ؟

- نعم .

- ولماذا تغطون رأسه ؟ تريدون أن تفطِّسوه ؟

ورفعت عنه الغطاء بسرعة . دهشت قلت :

- ولكنه ميت !

رد الرجل في تلقائية :

- نعرف أنه ميت !

- من أكثر من ساعتين !

- نعرف .

- لماذا أنا هنا إذن ؟ ولماذا الإبرة ؟

في هذه الأثناء وصل رجال يختلفون عن هؤلاء في أن عقالاتهم لم تكن منكسة . مدوا رؤوسهم الى داخل الغرفة الكبيرة . لمحهم الرجل الكبير فسألني :

- الإبرة جاهزة حكيم ؟

قلت :

- جاهزة ولكنني لن أضربه إياها .. إبرة لميت ؟!

قال بلهجة بين التهديد والرجاء :

- بل ستضربه إياها غصباً عنك .

لقد فهمت تقريباً لماذا أرادني أن أضرب أباه الميت إبرة ، لأنه قال وهو يكشف الغطاء عن أبيه الميت ويقلبه على قفاه مخاطباً الرجال الذين جاؤوا حديثاً :

- ارأيتم ؟

لقد أثبت لرجال الضيعة أنه وأخوته رجالٌ ، لايتركون أباهم المريض يفارق الحياة دون أن يجيئوا له بطبيب يعطيه إبرة في العضل . (أمرني) .

- اضرب !

عبأت السيرنغ بإبرة ماء مقطر . قلت : (أضربه إياها وأخلص !) . أدخلتها في عضل الرجل الميت بصعوبة بالغة . أفرغت ماءها وسحبتها بينما كان الرجال يعيدون عقالاتهم المنكسة إلى وضعها الطبيعي ، وانطلقت حناجر النساء بالعويل فكأنما الإبرة كانت بمثابة إيذان بموت الرجل الذي لم يُعْتَرَفْ بموته من قبل ، وتحرك الأولاد المتخشبون في كل اتجاه ، واختلط كل شيء بكل شيء . تركتهم وخرجت الى النور ، وإذ ذاك سمعت صوت المؤذن يصيح : سبحان من تفرَّد بالبقاء .

أبو النور لا يكذب

- الى المعلم حسيب كيالي :

محاولة متواضعة للسخرية من ظاهرة الكذب .

- سلامات أبو النور .
- سلامات .
- خير إن شاء الله ؟ شايفك مضطرب ؟
- إي والله ..حكى معي «المدير العام» في الهاتف .
- المدير العام شخصياً ؟!
- إي والله شخصياً .
- يعني كان يطلبك أنت بالذات ؟
- لا والله ، هو طلب مدير الفرع ، ومدير الفرع كان بَرَّة الدائرة .
- قام حكى معك لأنك موظف قديم . وأيش قال لك ؟
- قال لي : بطيخ مبسمر !
- بطيخ مبسمر ؟! شو يعني ؟
- لا أعرف ، هذه شغلة يعرفها الفلاحون ، وأنا موظف .
- وهل يريد شيئاً غير البطيخ المبسمر ؟

- اي . قال لي : **غداً صباحاً** ، مع عودة البريد ، ترسلون إلي كشفاً تفصيلياً بأسماء عناصر فرعكم ، وأسماء أفراد أسرهم ، وبياناً برواتبهم المقطوعة ، وتعويضاتهم التي يتقاضونها ، مع تفصيل بالحسميات من ضريبة الدخل والتأمينات وأقساط البنوك ، وتفصيل أسماء الذين يؤدون خدمة العلم والمفروزين والمندوبين والموضوعين تحت تصرف السيد المحافظ والحرس القومي والمنظمات الشعبية ..

- وشو قلت له ؟

- قلت له : على راسي يا أستاذ ، نرسل لك ما طلبته في مطلع الأسبوع القادم إن شاء الله .

- وشو قال لك ؟

- قال لي : ترسلونه غداً صباحاً مع عودة البريد . قلت له : الوقت لايكفي . قال : يكفي . قلت له : لايكفي . قال : يكفي غصباً عنك . قلت له : لايكفي وأنا عندي سبع وعشرين سنة خدمة وأعرف أنه لايكفي . قال لي . وأنا مدير عام وأعرف أنه يكفي . قلت له : لايكفي . قال : أيش أسمك ؟ قلت له : اسمي أبو النور . قال يكفي يابطيخ مبسمر . أغلق الخط ، ومتى مارجع مديرك خله يحكي معي .

* * *

- السلام عليكم .

- وعليكم السلام .

- خير إن شاء الله . أيش به أبو النور ؟

- سلامتك ، اتصل به المدير العام شخصياً .

- مبروك ! شو قال له ؟

- اسأله !

- شو قال لك ؟

ـ قال لي : اكذبْ عليّ !

ـ معقولة ؟!

ـ هذا الذي صار .. قال لي : اكذبْ علي !

ـ وكذبت عليه ؟

ـ أبدا مستحيل .. قلت له : آسف أنا لاأكذب .

ـ وأيش كان جوابه ؟

ـ صار يصرخ .

ـ ولما صرخ ماذا فعلت ؟

ـ فتحت فمي .

ـ فتحت فمك ؟ لماذا ؟

ـ حتى يتساوى الضغط على الأذن من الطرفين من شأن ما تنبعج .
جهذه علمونا إياها في الجيش نطبقها أثناء القصف المدفعي ..

ـ من قال لك ؟ هذه تستعمل من أجل كل الأصوات العالية .

ـ طيب ، لما صرخ ، وبعدما فتحت فمك شو سمعت ؟

ـ سمعته يقول : بل ستكذب علي غصباً عنك يابطيخ مبسمر .

ـ وكيف تصرفت ؟

ـ والله ، اعتزرت منه بلباقة وأكدت له أني في الوظيفة منذ سبع وعشرين سنة ، وأنني لم أكذب خلال حياتي كلها ، والحمد لله ، ورجوته أن يكلفني بالعمل الذي يشاء،مقابل أن يعفيني من الكذب .

ـ وأيش كان رده ؟

قال لي : أغلق الخط ، ومتى ما رجع مديرك خَلِّه هو يكذب علي !

١٩٩٠/١٠/٢٥

صباح الخير

- صباح الخير أستاذ .

يهتز . أخشابٌ متراكبة على هيئة هرم ؛ يأتي طفل شبعان يسحب واحدة من قاعدتها . بم ، بم ، دي دي بم ..تنهار .

ـ صباح الخير .

تتبعها ضحكةٌ مصممة أساساً لتشلَّ قدرته على الكلام وتجعلَ وجهه بارداً خالياً مَن أي تعبير ، وعينيه كأنهما عينا خروف مفصول رأسه عن جسمه يبادلانك النظر دون أن يقولا لك شيئاً .

- صباح الخير أستاذ .

كم مرة تمرن على الإجابة في البيت أمام المرآة : ابتسامة مغلقة لاتسمح للأسنان الملبَّسة بالنيكل أن تبان ، ثم ، وبصوت رجولي يشي بالفحولة العارمة : «صباح الفل ! أهلاً بالآنسة حنان ، كيف الأحوال ؟»

ولكن الهرم طقطق في الداخل وانهار ، وأجفله ارتطام الأخشاب بالأرض ، ومشروع الابتسامة المغلقة تمادى إلى ارتخاء في الفك وبانت الأسنان الملبسة بالنيكل والجسورُ التي صنعتها له الدكتورة ناديا ، وكل هذا لم يوح بأنه يضحك، وعينا الخروف لم تفعلا شيئاً غير النظر الغبي .

ـ صباح الخير أستاذ ، رد علينا !

تبعتها الضحكةُ المصممة من أجل شَلِّهِ . ولكنها امتزجت هذه المرة بما يشجِّع على الكلام : «رد علينا يافحل ، والله نحن لانخوف .....!»

الهرم استعيد بناؤه ، كيفما اتفق ، طفل مرح حل محل الهيئة المتجمدة ، التعبير قال دون أن تتحرك الشفتان .

«صباح القرنفل والورد»

ـ هل أستطيع أن آخذ من وقتك خمس دقائق ؟

«خمس دقائق فقط ؟ ياظالمة ! اقعدي هنا يومين متتاليين ، وأكون سافلاً إذا أنا رفعت جفني ترفيفاً ..»

ـ هل تسمح لي بالجلوس ؟

«أسمح لك ؟ أنا ؟ بل تكرمي علي أنت به . نعم ، تكرمي علي بالجلوس ياحنان !»

ـ صباح الخير ياجماعة !

«أنت ؟ ما الذي جاء بك الى هنا الآن ؟»

ـ صباح الخير !

«وتقول صباح الخير مثل البشر الأكابر ؟ ألم يقل لك أحد إن صوتك أشبه ما يكون بضرب النعال على الأرض ... ؟»

ـ صباح الخير خيُّو ، ردّ علينا ، السلام لله !

«سأرد عليك طبعاً ، ولكن ليس الآن . أقرضني تحية الصباح هذه الى الغد ، فغداً سأكون أول من يدخل غرفتك ويصبِّحك بالخير وأنوار النبي . ليس هذا فقط ، بل إنني سأندلق عليك وألف رقبتك بذراعي ونأخذ صورة تذكارية ، ونكتب على قفاها : ذكرى الأيام الحلوة في شركة المنتجات الجاهزة . أما الآن ..»

ـ هل تسمح لي بالجلوس ؟

تجلس ؟ ارأف بحال الكرسي يارجل»

الأستاذ عبد الحميد ؟ لم أره اليوم ؟

«ليتك عنده ! في القامشلي . أبعد بلد عن مكان وجودنا الآن . البارحة منحتُهُ إجازة مدتها أسبوع لأنه يتاجر بالتين كما تعلم . لماذا لاتفعل مثله ؟ ألست من أصحاب الدخل المحدود والراتب لايكفيك وأسرتك الكبيرة ؟ لماذا لاتشتري تيناً وتشرِّق به الى القامشلي ؟»

– مفتاح غرفته لازم لي . أريد أن آخذ منه دفتر الصادرة .

«المفتاح ودفتر الصادرة فقط ؟ ياسلام ما أخف ظلك ! خذ غرفته كلها هاك المفتاح . ركِّب لغرفة الأستاذ عبد الحميد عجلات ومحركاً ، وشغِّلها وقل : يا الله !»

– شكرا أستاذ !

«لا ، لا ، لا ، ..هذا واجبي ، تفضل !»

– وأنا أستأذن أيضاً .

«إلى أين ؟ وهل رأيناك ؟»

– أريد أن أعاون الأستاذ حسون في مراجعة دفتر الصادرة !

ولحقت بزميلها حسون الى غرفة الأستاذ عبد الحميد . رآهما الأستاذ يدخلان ، دخل حسون أولاً ، ثم دخلت حنان وأغلقت الباب بهدوء . ثم سمع صوت إقفال الباب من الداخل .

وكلابك لأيش؟!

خرج السيد عبد الحميد من دار القمار في حدود الثالثة صباحاً بعدما خسر كل شيء : خسر مدخراته ، وثمن محتويات المحل التجاري الذي قدمه له أبوه قبل شهور عندما جاءه عشاء يبكي ويحلف على المصحف الشريف أنه لن يلعب بالقمار مادام حيا ...

في طريق عودته الى البيت ، حدث نفسه قائلاً :

ـ ياعبد الحميد ، ماذا تريد من أبيك فوق هذا ؟ الرجل ، زواجاً زوجك ، بيتاً للسكنى اشترى لك ، محلاً تجارياً تعيش من وارداته اشترى لك ؛ قمارك ياعبد الحميد لأيش ؟

وضع رأسه على المخدة لينام . أين النوم ؟ وهل بقي معه ثمن خمس دقائق نوم لو كان النوم يباع فعلاً ؟ غداً ، صباحاً ، ماذا سيقول للرجل الطيب أبيه الذي احتمل غلاظاته كل هذا العمر ؟ ماذا سيقول لأمه التي ستضع إصبعيها في أذنيها وتصيح : ولي ...ه على قامتك ياعبد الحميد ، رجعت الى القمار ياعدو الله ؟ ماذا سيقول لزوجته التي ستشرع فور سماعها النبأ الحلو بإسالة دموع صامته قاتلة وتضب ثيابها وتترك له البيت والأولاد الى أجل غير مسمى ؟

فجأة لمعت في رأسه فكرة ، فكرة عبقرية تخلصه من كل هذه المآزق دفعة واحدة . انتصب واقفاً . ارتدى ثيابه من جديد ، وخرج الى الشارع متسللاً على رؤس أصابعه ، حاملاً مطرقة وإزميلاً وعتلة وبنسة ومفك براغي كبيراً . وصل المحل ، حطم الباب بطريقة عشوائية، وعاد الى البيت . نام قرير العين .

في حدود العاشرة صباحاً أيقظوه :

- قم ياعبد الحميد . المحل سُرق عن بكرة أبيه .

- ماذا تقولون ؟ ياالطيف الطفْ يارب !

جاءت الشرطة ، وأخذت البصمات . وسئل عبد الحميد عما إذا كان يشك بأحد ، فاستغفر الله وقال إن بعض الظن إثم .. وأضاف قائلاً لهم إنهم إذا لم يعثروا على الجاني الحقيقي فإنه سيأخذ حسبه الله ونعم الوكيل .

ظهراً ، والأسرة متحلقة حول الطعام ، التقط عبد الحميد إشارة شك من عيني أبيه . فما كان منه إلا أن أعلن بلهجة قاطعة أنه ، غداً في الصباح سيأتي بالكلاب البوليسية ، حتى لو كلفه ذلك أثاث البيت ، وأضاف بصراحة ، إذا نحن لم نأت بالكلاب نكون إنما أضعنا حقنا ، لأن الشرطة ، أنا أعرفهم ، قلما يستطيعون القبض على مجرم بالوسائل التي بين أيديهم .

استمر الأب في لعبة الشك ، فثنّى على كلام ابنه ، وناوله مايكفي من النقود لاستقدام الكلاب البوليسية .

في صبيحة اليوم التالي تجمع أهالي البلدة في الساحة الرئيسية ، ورأوا ثلاث كلاب تتحرك دفعة واحدة باتجاه السيد عبد الحميد ، وهو ينط الى فوق ينزل الى تحت وهي تشد كمي بنطلونه وتمزقها وتنبح ، وهو ينط ويقول مخاطباً نفسه بصوت يشبه الصراخ :

- .. وكلابك لأيش ياعبد الحميد ؟ كلابك لأيش ؟

المنزل

منزل جميل ، من الحجر السوري . تحيط به حديقة من الكروم وأشجار المشمش والكرز والكباد . أبوابه ونوافذه مغلقة . خال من البشر ، صامت .. وأما عصافير أشجاره فتزقزق بلا انقطاع .

وذات لحظة : سكتت العصافير . فُتح باب الحديقة في حذر ، دخل منه شاب وسيم ، وتركه مواربا . عبر الأشجار الى الداخل . فَتَحَ الباب الداخلي . دخل . تركه مواربا .

دخلت فتاة ترتدي بدلة «فتوة» . أغلقت باب الحديقة وراءها في حذر . انسلت عبر الأشجار الى الداخل . دخلت . مد الشاب يده وأغلق الباب . عادت العصافير تزقزق .

حلم الغروب

... وقالت شروق إنها رأت فيما ترى الحالمةُ نفسَها وإياي واقفين وقت الغروب على شرفة بيتها ومن أمامنا السوقُ ينغل بالناس أعينُنا معلقةٌ بالشمس الغاربة وأنا أمد يدي كعادتي فأحيط خصرها وأعصره فتقول لي كعادتها أنزل يدك واقعد عاقلاً ألا ترى الناس فأقول لها إنني لا أرى سوى الشمس الغاربة ولا أحس إلا حضور جسدك الرهيب وأقول انظري إنك ستغربين يوماً مثل هذه الشمس على الرغم من أن اسمك شروق ولن تشرقي بعدها قط مع أن الشمس ما تنفك تشرق وأحكي لها عن المرحوم أبي الذي كان جميلاً ونظيفاً وذكياً ويحب النساء ويُذْعِرُهُ الموت وكان كلما أعجبته امرأة تزوجها لأنه كان لايستطيع الوصول الى حضرة البياض والاستدارات بغير الزواج لتعسفه هي بكومة من الأولاد لهم حقوق وطلبات وآمال وأحاسيس وأقول لها إن هذه لمسألةٌ قاتلة فهذا العري ينبغي ألا يبقى في متناول النظر حتى نشتاق إليه ونُعْمِلَ تفكيرَنا في تصوُّره وأحكي لها عن بنت كنت أحبها وكتبت لها شعراً أو ما يشبه الشعر ثم تزوجتها ياحرام وأقول لها إن الحياة قصيرة لذلك يجب أن تعلّمي يدك أن تكف عن دفع يدي كلما لامستها لأن كل لحظة تمر تشبه هذا النزول الخفي غير الملموس للشمس وراء الجبل فلا يحس الواحد منا إلا وهو ينتظر من يفتح الباب عليه

ليقول له كيف حالك من باب الشفقة ورأت فيما رأت انها اقتنعت بما قلتُ فاندفعت بشفتيها صوب شفتي فتلقاها وهج عارم ومدتْ يدها الى صدري تمررها عليه فلم تجد شيئاً واستيقظتْ لتجد وجهها ملتهباً ويدها مرفوعةً الى مسافة صدرٍ فقالت أين اختفيت بهذه السرعة ؟

في الوقت الضائع

يراها من نافذة غرفته بثياب البيت : ثوب رقيق مبتل بالماء وملتصق بجسدها غالبا ، وفي قدميها شحاطة إسفنجية كتلك التي يلبسها المصطافون على شاطىء البحر . وثمة امرأة سمينة ـ لعلها أمها ـ جالسة في ركن من الغرفة تحرك شفتيها بكلام تتحرك له الصبية خارجة من الباب المفتوح دائماً ، ثم تعود حاملة شيئا تناوله للسمينة وتقف منتظرة إشارة أخرى .

وفي اللحظة التي ترى الصبية فيها الوقت قد أصبح مناسباً،تقترب من النافذة وتعطيه إشارة بيدها فيستعد ويركز عينيه على فم السمينة . السمينة تحرك شفتيها فتندفع الصبية خارجة من الباب . هو يقذف بصره إلى منعطف الشارع فيراها مقبلة وقد لفت جسدها برداء فضفاض ورأسها بمنديل أبيض . ينتظر لحظة ثم يهرع إلى الباب فيواربه ويقف وراءه يدافع أنفاسه التي تبدأ تتلاحق . يُدفع الباب برفق وتدخل هي . لاتسلم ولاتقول شيئاً ، تقبله ، وتخرج مسرعة ، فيغلق هو الباب بهدوء ويرتكي عليه منتشياً،ويقول لنفسه :

ـ لاريب في أن هذه أقصر قبلة في تاريخ الجنس البشري !

ويمشي إلى النافذة فيلمحها مدبرةً تجتاز منعطف الشارع حتى تغيب عن بصره

فيعيده إلى النافذة فيرى المرأة السمينة جالسة وعيناها الى الباب المفتوح ويرى الصبية داخلة بثوبها الرقيق المبتل بالماء حاملة بيدها شيئا تناوله لها وتقترب من النافذة تنظر إليه ، وتبتسم .

دلال عقارات

- إلى محمد نور قطيع . المؤلف الذي لا يكتب !

(أنت لاتسرق ، فهمناها ، وصدقناك ، ولكن لماذا تضع يدك في جيبي ؟)

- ١ -

شارع طويل ، جانباه مزحومان بكومات من البحص والحجارة والنحاتة . اخترقه من جهة الشرق رجلان . الأول الماشي في المقدمة متوسط العمر والحجم ، ممتلىء ، رأسه صغير ومتصل بالجذع دون رقبة ، له بداية كرش ذي مستقبل باهر . الثاني الماشي وراء الأول على استحياء ، شاب في الخامسة والعشرين تقريباً ، نحيف ، محدودب الظهر ، على جاكيته من الخلف رقعتان ، لحيته نابتة وخداه غائران في فمه (من يره يظنه هارباً من إحدى لوحات الفنان علي فرزات) . كان الرجل ذو الكرش ذي المستقبل يحكي دونما توقف ، والرجل العليفرزاتي يعبر عن دهشاته الملاحقة بفتح فمه وإغلاقه ، ورفع حاجبيه ، معاً أو بالتناوب ، وخفضهما :

- قسماً بالله ياأخي ..أبا محمد ، اللهم صل على سيدنا محمد خاتم النبيين ، هذه أجمل دار في البلد . انظر الى هذه الإطلالة ياشيخ ، انظر . دار معتبرة ، في الصيف ثلاجة وفي الشتاء حمام . مفتوحة على الجهات

الأربع ،شمسية قمرية ، تستقبل الشمس عند الشروق وتودعها عند الغروب . أنت تعرف المهندس الذي صممها ، الأستاذ رستم الكشك . ألاتعرفه ؟ يا أخي هذا في الهندسة فلتة من فلتات الزمان . درس في فرنسا ... لم يدرس في حلب ! وهذه نقطة ذات أهمية طبعاً . وصاحب الدار الحاج درويش الهز ، ألاتعرفه ؟ هذا ، إذا كنت تبحث عن نموذج للرجل المضبوط النظامي تجده فيه ، يعرف الله ويتقيه حق تقاته . ليس كأولئك المتعهدين الطالعين على الدنيا من جديد ولايعرفون الله بالإشارة ، الذين إذا وقع تحت يدهم واحد رنجبال شرواك نتروه ببيعة لاتقوم له بعدها قائمة ، الحاج درويش صائم مصل لايرفع ذكر الله من فمه ، بعدها ، بيني وبينك ، الحاج درويش في قلبه شيء لله . أنا رأيته أكثر من مرة يتبرع لبناء جامع ، أو يعطي مافيه النصيب لشحاذ فقير معدم . يقترب منه الشحاذ فيمد يده الى جيبه ويخرج كل ما مافيها من نقود معدنية ، يصرها ويقول له : خذ ! ومن كان مثله ، أنت تعرف ، يقول له الكريم : خذ ! وبالفعل لقد قال له الكريم خذ،قولة لايقف عليها حكيم ، فقد صار عنده حتى هذه اللحظة خمس عشرة بناية ، عدا النثريات المطرشقة هنا وهناك . وياما سيعطيه . ولكن هذه مالنا فيها ؟ إن هذه الدار التي هداك المولى لشرائها في الطابق الرابع ، والطابق الرابع لواحد مثل حالتك عز الطلب . أنا يا أبو محمد رأيت لك أن السكنى في الطابق الرابع لاتضاهى في متعتها . لماذا ؟ لأنه لايوجد فوقك ـ بلامعنى ـ أحد . تُدَرْبِك أنت على الجيران بقدر ماتشاء ولاأحد يستطيع أن يدربك عليك . تستطيع أن تمشي أنت وزوجتك . متزوج ؟ عظيم ! وأولادك .. عندك أولاد ؟ ماعندك ؟ أحسن لك ! في هذه الحالة تمشي أنت وزوجتك ليلاً ونهاراً عاريين ، أقصد بالسيقان ، دون أن يراكما أحد ، في حين تستطيع أنت أن ترصد أدنى حركة من حركات الجيران في الطوابق الأدنى تحتك وفي مقابلك . أنا حكى لي واحد من أصحابي ساكن في الرابع ، قال لي ، في الليل يا أبو مطيع ، تشتغل الأفلام ، أفلام (سقس) شخصي ، يعني غير تلك التي نراها على (الفيديو) . عندك فيديو ؟ ماعندك ؟

ثم إن سطح البناية كله تحت تصرفك . عليه تنشر غسيلك ودبس البندورة وتينك وزبيبك ومرباك . وإذا كانت لك سوسة في تربية الحمام تستطيع أن تبني

شمسية حمام دولية ، ويكون عندك حطيط [1] طويل عريض ، وأنا أراهنك أنه لن يمر يوم لاتمسك فيه طيراً قطيعاً[2] ، وتغطسه[3] ، واليوم أبشع طير حمام بمئة ليرة .

أنا أعرف أناساً يفضلون السكنى في الطابق الأرضي . تسألهم عن السبب فيقولون لك إن فيه حديقة . مرحبا ياحديقة ! صحيح أن الأرضي فيه حديقة ، ولكنه في لغتنا نحن الدلالين (مزبلة البناية) ، إذا جاءني زبون وطلب طابقاً أرضياً ، أتصل بصديق لي في المصلحة وأقول له دون أن يسمعني الزبون : (سأبعث لك الآن بزبون يريد شراء مزبلة ، دَبِّرْ له مزبلة لو سمحت !) . لأن نسوان الطوابق العليا يرمين عليه ملاقط الغسيل ، والأولاد يرمون عليه أشياء عيب عليّ أن أذكرها أمامك ، واذا زقمت البالوعة في أحد الطوابق زقمت في الأرضي حتماً ، وإذا شطفوا البرندا في أي طابق كان ، كبكبوا الماء ، بعد الشطف ، على الأرضي ، وياسلام على تلك الماء ، ما أنظفها ! وحتى الشارع ، إذا كان المنسوب غير صحيح ، يعني إذا كان المهندس الذي صمم من الدارسين في دمشق أو حلب أو اللاذقية ، فإن ماء الشارع عندما تكون الأمطار غزيرة ينط ويقلب على الطابق الأرضي ، هذا عدا عن أن (المَضَام) لاتجرؤ على الخروج من داخل الغرفة إذا لم تكن لابسة لباس الميدان الكامل ، لأن البصبصة من الأعلى مثل حرب المسكوف . أي علي الطلاق بالثلاثة أنا لو ملكوني طابق أرضي بالمجان لا أسكنه !

اسمع هذه القصة حتى تقتنع . أمس ، في حي الناعورة ، كان واحد من سكان الطابق الرابع يعيِّر آنتيل التلفزيون على القناة الرابعة في تركيا ، برمه هكذا ، برمه هكذا .. طُبّ ! وقع الآنتيل كله على الطابق الأرضي . تشقَّف الآنتيل في الحال ، وطارت شقفة منه ، اخترقت بلور غرفة النوم ، وجرحت صاحب البيت

(١) الحطيط في لغة مربي الحمام : مكان نزول الحمام من الجو .

(٢) الطائر القطيع : هو الضال عن قطيعه

(٣) التغطيس : إخفاء الطائر الممسوك ، وحلف أغلظ الأيمان على أننا لم نره !

في ظهره ! أين جرحته ؟ في ظهره . فتصور نفسك يا أخي أبو محمد ـ تصور نفسك لاسمح الله - جالساً أنت وأختنا أم محمد في أمان الرحمن ، وإذا بـ ...أستغفر الله ، يعني حتى يسكن الواحد في طابق أرضي يغامر بحياته ؟

ـ ٢ ـ

[أوصل الرجل عديمُ الرقبة زبونَه العليفرزاتي الى إحدى الشرفات :]

ـ المنطقة هنا وسط . لا أريد أن أغشك ، فأنت تعرف خير الأمور أوسطها . واحد شرواك أين يسكن لاتؤاخذني ؟ في القصور ؟ صعب ! لأنك إذا سكنت في حارة أكابر ستجد أهلها يتمضرطون عليك ، مع أنك ، على رقبتي ، أحسن من لحية أبيهم ، وإذا سكنت في حارة جربانة سيكون الوضع أسوأ . عندنا مثل يقول : دن دن يا دنو .... أنت تعرفه طبعاً .

ـ ٣ ـ

[توقف الرجل عديمُ الرقبة عن الكلام فجأة ، حك رأسه ، سحب زبونه من كمه الى مدخل الدار :]

ـ إن عدد الدرجات المؤدية الى دارك مفرد،ثلاث وسبعون درجة . وهذه ناحية مهمة جداً جداً يا أخي أبو محمد . لماذا ؟ لأنك في هذه الحالة إذا بدأت الصعود بالرجل اليمنى تصل بالرجل اليمنى ، وإذا بدأته بالرجل اليسرى تصل باليسرى . شكوته لحضرة الله تعالى هذا المهندس رستم ، أفكاره تخل العقل !

ـ ٤ ـ

[الرجل ذو الكرش نقر بأصابع يده على باب الدار :]

ـ سُوّيد مع زان . مستحيل أن تجد عندنا قطعة شوح واحدة . الحاج درويش لم ينجر بالشوح مرّة واحدة من يوم أن توكل على الله وعمل في التعهدات . لأن الشوح ، مثلما تعرف ، فشفاش ، والأبواب التي تصنع منه تُفَتِّل . تغلق الباب ومع ذلك تبقى فرضة يدخل منها الجمل بما حمل ، ناهيك عن

العقد التي تنقلع مع الزمن ، بحيث مكانُهايُمَرِّرُ قبضةَ الرجل .

- ٥ -

[فتح الرجل عديمُ الرقبة الباب بالمفتاح . دخل الرجلان :]

ـ فتحنا الباب وجدنا في مواجهتنا المرحاض . نعم ، المرحاض . مرحاض واسع انظر ، افرش ونم . وهذه الناحية أنا أول من ناقش بها المهندس رستم . قلت له : أولاً ، لماذا المرحاض واسع ؟ وثانياً ، لماذا وضعته مقابل الباب ؟ ضحك وقال لي : إذا كان ساكن الدار سميناً كيف يستطيع .. في واحد ضيق ؟ وقال لي : ولكنني لا أجعل باب المرحاض على الممر مباشرة . عندي باب ، ممر ، باب ثان هو باب المرحاض . في هذا الممر الصغير يضع الساكن مغسلة ومرآة وميزاناً . في المرآة يتأمل وجهه قبل الدخول وبعد الخروج ويلاحظ التغيرات عليه ، وعلى المغسلة يغسل يديه ، وبالميزان ، إذا وزن نفسه قبل الدخول وبعد الخروج ، يعرف ، بعملية حسابية بسيطة الكمية التي تخلص منها . ثم إن بُعْدَ المرحاض عن الممر يفيد في عدم انتقال الروائح الى الممر ، وكذلك الأصوات ، فإذا كنت في الداخل ، أضرب قنابل ، أو أفرغ سيارة حجارة لاأحد يسمعك .

- ٦ -

[في غرفة الضيوف ...] :

ـ وهذه ، غرفة الضيوف .. لامثيل لها . ميزتها الأولى أنها قريبة من باب الدار ، دخل الضيف ، خرج ، لايشعر به أحد ، وميزتها الثانية أنها قريبة من المرحاض . فلو كانت جوانية وانزنق عندك ضيف ، ماذا تفعل ؟ ستقول يا أم محمد ، افتحوا لنا طريقاً ، إحم ، دستور تستغرق معك المسألة دقيقتين يكون خلالهما الأمر قد انقضى .

تعال الآن إلى النافذة : أبجور ودرفة وشعرية . هل لديك فكرة عن استعمالها ؟

إذا كنت تريد شمساً دون هواء وذباب تفتح الأبحور فقط
وإذا كنت تريد هواء دون شمس وذباب تفتح الدرفة فقط .
وإذا كنت تريد ذباباً دون شمس وهواء تفتح الشعرية فقط !

- ٧ -

ـ اعلم أنك إذا اشتريت هذه الدار تكون إنما وقعت في حضن أمك وأبيك . إن الحاج درويش يطلب بكل هذه الدار السّيّاحة النّيّاحة خمسمئة ألف ليرة فقط . ولأجل طيبتك وآدميتك نستطيع أن نأخذها لك بأقل من هذا . أنت من أصحاب الدخل المحدود،أليس كذلك ؟ لقد أوصاني بكم الحاج درويش كثيراً . قال لي هؤلاء صاروا أفقر حتى من العمال والفلاحين ، فلا تلطهم بالسعر برضاي عليك . أطال الله عمره كم إن قلبه طيب . ألا يحبكم ؟ سأقول لك شغلة ، أرجوك أن نتركها سراً بيني وبينك . الحاج درويش له شركاء !.. اي والله مثلما قلت لك . جماعة صار عندهم أموال ولكن ظروفهم لا تسمح لهم أن يعملوا في التعهدات علناً ومن جهة ثانية الحاج درويش تدقر له معاملة في دائرة رسمية ، هم يمشونها له وأنت تعرف : من يعطك نقوده عليك أن تعطيه عليها ربحاً ، صحيح ؟ وهذا الربح أين سيذهب ؟ يضاف إلى الدور المعروضة للبيع . ولولا هذا كنت لفلفت لك كل هذه الدار بأربعمئة ألف ليرة !

تعال حتى أريك الحمّام . الحمّام يا أبو محمد ، بالصلا ....

- ٨ -

[نظر الرجل ذو الكرش ذي المستقبل وراءه فلم يجد الرجل العليفرزاتي . ركض يبحث عنه في الممرات ، في الغرف ، في المرحاض .. لا أحد :]

ـ يا سلام . انتفخنا من ساعة حتى الآن ، والرجل هرب . الحق على من ؟ الحق على لحية أبي أنا . نعم . الحاج درويش ذكره الله بالخير ، قال لي ألف مرة : هؤلاء أناس الخيام كثيرة عليهم ، فلا تضع وقتك معهم ! ولكنني لم أسمع كلامه . على كل حال أنا أريهم !

- ٩ -

[خرج أبو مطيع . عمّ السكون المكان . غاب ساعة أو نحو ساعة ، ثم عاد إلى الشارع نفسه جارّاً وراءه رجلاً يشبه الرجل الذي هرب في كل شيء ، إلا في أن على ظهره رقعة واحدة فقط . أبو مطيع يمسكه بطريقة تحمل على الظن أنه وضع في يده (كلبجة). أدخله شقة في الطابق الأرضي :]

ـ عليك حظ يا أخي أبو ... أبو محمد ،أيضاً ؟ وما المانع ؟ محمد اسم فضيل ، اللهم صلّ عليه ، وإيقاعه حلو ، وكتابته سهلة ، ومألوف . أنا عندي ثلاثة شبان ، الله يخلي لك أولادك ، كلهم أسماؤهم مركبة : محمد مطيع ومحمد ثروت ومحمد عبد الغني . يبدو أن الوالدة ... عائشة أم ميتة ؟ ميتة ؟ الله يرحمنا جميعاً ، يبدو أنها راضية عنك وهي في قبرها ، وإلا ما كان السميع العليم أنزلك على رجليك واقفاً إذ ألهمك أن تشتري هذه الدار التي لا تختلف عن القصر في شيء . هذه دار للصيف والضيف وغدرات الزمان . واطية ، والأرض الواطية تشرب ماءها وماء غيرها . لا يوجد أحلى من مدخلها أبداً . ثلاث درجات وتصبح في بيتك تاركاً سكان الطابق الرابع يطحون وينحون ويشخترون مثل الغنم لأن معظمهم مصابون بالروماتيزم والعرق الأنسر والديسك وتسرع القلب . أنت الآن كم عمرك ؟ لنقل خمسة وثلاثين ، حط فوقها خمسة عشر تصير في الخمسين ، وقتها كيف ستطلع إلى الرابع . لا تقل لي : وقتها نبدّل الدار ، وهل تبديل الدار هين ؟ ني الدار كلسون حتى نبدله كل يوم ؟

- ١٠ -

[أبو مطيع محكم الشد على رسغ الرجل العليفرزاتي . شحطه إلى الباب الخارجي :]

ـ هذا اسمه جرس . تضغط عليه ضغطة خفيفة فيشتغل التغريد في الداخل . وهذه عين سحرية . انظر . يجيئك ضيف ، يرن الجرس ، فتأتي أنت على رؤوس أصابعك . تنظر من خلال العين السحرية ، تراه ، هو لا يراك .. أعجبك الضيف

تدخله ، لم يعجبك لا ترد عليه ، خله يرجع في جهنم الحمراء التي تلعن امه وأباه . قال ضيف . بالله عليك ما هي المميزة التي يتحلى بها (الضيف) حتى نقف في خدمته مثل الجيش المستنفر . أنا شخصياً لا أفتح الباب إلا إذا كانت لي مع طارقه مصلحة . أكرر : أنا لي معه مصلحة . تعال اقعد في خدمة من جاءك يتسلى ، والهربان من زوجته النقّاقة ، ويا أم مطيع هاتي قهوة ، ويا أم مطيع هاتي البرتقان .. يخسرنا من جهة ويعطلنا عن شغلنا من جهة أخرى .

ـ ١١ ـ

[سحب أبو مطيع زبونه العليفرزاتي ذا الرقعة الواحدة إلى الداخل :]

ـ الحمد لله ، لا يوجد عندنا دُور في الطابق الرابع ، كنت خجلت مغك خجلاً لا يوصف . أنت تعرف أن الطابق الرابع مفتوح من فوق ، وبالتالي فإنه لا يحجب البرد في الشتاء ولا الحر في الصيف . هذا عدا عن نشيش السطح وشحار المدافىء ، مدافىء البناية كلها تطلق دخانها وشحارها إلى سطح الرابع .. وعدا الاحساس بالعزلة . شيء يطقطق بكل معنى الكلمة . على حد علمك ، خلال السنوات العشر الماضية ، كم حادثة انتحار وقعت في مدينة ادلب ؟ ستة ؟ تعال أنا وأنت نسأل أين كانوا يسكنون ؟ سيقال لنا حتماً إنهم كانوا يسكنون في طابق رابع . ثم ، هل سمعت أن شاباً قروياً انتحر ؟ كلا ؟ لماذا ؟ القرويون لا ينتحرون لأن بيوتهم كلها أفقية ، لا رابع ولا مايحزنون .

حكى لي واحد صاحبي كان ساكناً في الرابع قبل أن أقنعه ببيعه واستبداله بطابق أرضي ، قال لي : (نمنا ذات ليلة ، وكان الطقس عادياً . استيقظنا صباحاً فوجدنا الثلج غامراً كل شيء . والله يا أبو مطيع أنا أول ما فكرت أننا في جبل الشيخ !). اي بشرفك في مثل تلك الحالة اليس المفروض بالواحد أن ينتحر ؟ هو لم ينتحر ، لأني على الفور بعت له الرابع وأخذت له داراً أرضية . الأرضي غير شكل ، فيه نفع . عندك الحديقة مثلاً مساحتها دونم ، وانت طبعاً لن تتركها قرعاء ، سوف تزرع فيها من البصل إلى الخيار إلى

البندورة إلى القرع الرومي . لن تحتاج شيئاً من السوق أبداً ، وهذه توفر عليك كثيراً ، لأن كيلو البصل ، وهو طول عمره ذليل ، صار بأربع خمس ليرات .

ثم ، كم يوقع عليكم الجيران من أغراض ؟ كثير ؟ وأنت ماذا تعمل بها ؟ تلم وتبيع ، تلم وتبيع ، أو ، اذا كنت لا تريد أن تبيع ، تتصرف : من هنا سروال رجالي تلبسه أنت ، من هنا تنورة لزوجتك ، من هنا بالون لابنك .. وهذا كله ماذا يكلفك ؟ لا يكلفك سوى أن تفتح الباب لمن يرن عليك الجرس ويسألك :

ـ هل وقعت عندكم كرتنا ؟

ـ لا والله يا ابني .

وكان الله يحب المحسنين . وحتى إذا لم تحب أن تفتح أبداً ، لا تفتح ! أنت حر !

ـ ١٢ ـ

[أبو مطيع نقر باليد التي لا تمسك الرجل ذا الرقعة على الباب :]

ـ شوح ! الحاج درويش الهز لا ينجر بغير الشوح . ولأننا نحب الصدق ونكره الدجل نقول إنه شوح ، ولا نقول إنه زان أو سوّيد . الكذاب ملعون واللعنة لم تحتملها الجبال ونحن بشر من لحم ودم . في بداياته نعم ، كان ينجر بالزان والسويد ، ولكن زبائنه كانوا من الأغنياء . وقتئذ رحت أنا إليه وقلت له : (يا حاج ، والفقراء ؟ هل نتركهم في الشوارع ؟)، فذرف ، مازلت أذكر ، دمعتين وقال لي :

ـ أستغفر الله العظيم ، كيف فاتتني هذه ؟ والله إني من الآن فصاعداً لن أعمر لغيرهم . وسأخفض لهم التكاليف والربح يجب أن نؤويهم ، حرام !

وقد خفض التكاليف والربح فعلاً . هل تتصور أن هذه الدار السياحة النياحة كلها بأربعمئة وخمسة وسبعين ألفاً لا غير ؟ وهل تعرف أن للحاج شركاء ؟ لا تعرف ؟

-١٣-

[أعاد أبو مطيع زبونه العليفرزاتي ذا الرقعة الواحدة إلى الباب :]

ـ لاحظ الترتيب والدقة والفن . تفتح الباب ، تدخل ، تجد نفسك في المطبخ شيء مدروس بعناية ، وأنا أعرف القصة من أساسها : يوم ذهب الحاج درويش الهز إلى المهندس رستم الكشك ، بعدما أقنعته بأن يبني للفقراء .. قال رستم الفقراء على رأسي وفوق عيني . سأجعل المطبخ وراء باب الدار . استغرب الحاج وسأله عن السبب . قال رستم : لأن الفقير يدخل بيته واضعاً يداً أمامه ويداً خلفه ، فتستقبله زوجته بالصفق والرقع ، أين اللحمة ، أين اللبن ، أين البطيخ ؟ فيقول لها أفٍّ وينهرها ، ويأمرها بأن تأتيه بشيء يأكله . فتقول له : انتظر إذن حتى تنضج الطبخة. التي أحضرتها لي ! فيقول لها أفٍّ وينهرها مرة ثانية ، ويتجه إلى المطبخ بحجة أنه يريد أن يأكل أي شيء يصادفه ، ومن هناك يفتح باب الدار ويا من سترت لا تفضح !

-١٤-

[عندما بلغ الرجل عديم الرقبة هذه النقطة من حديثه ، حانت من الرجل العليفرزاتي ذي الرقعة الواحدة حركة غير متوقعة جعلت ذا الكرش يفلت يده ويختل توازنه ويقع ، بينما خرج العليفرزاتي من الباب مسرعاً . قال ذو الكرش وقد بلغ به الغيظ كل مبلغ :]

ـ تفو على لحية أبيك . تفو على كل الفقراء لأجلك . الآن آمنت بكل ما يقوله الحاج درويش وبالأخص قوله عنكم إن الزرائب كثيرة عليكم ... كثيرة عليكم .. تفو !

كانون الأول ١٩٨٧

الفهرس

- امرأة تكسر الظهر ٥
- كاميرا الأحلام الخفية ٧
- قباقيب حضارية ١٧
- الحلقة العاشرة ١٩
- الطريق ٢٣
- قاموس الذكريات العجيبة ٢٧
- افتحي عينيك جيداً ٣٥
- سهرة عائلية ٤١
- فأر الكاباريه ٤٣
- فأر الخمارة ٤٥
- مكافأة ٤٧
- الطلبية ٤٩
- السيرك ٥١

- حضرنا فلم نجدكم ٥٣
- النـــاشل ٦١
- مقهى القصر ٦٧
- المجلـــة ٧٣
- ثلاثية الأدوات ٧٧
- إبرة بـالعضل ٨١
- أبو النور لا يكذب ٨٧
- صبـاح الخيـر ٩٠
- وكـــلابك لأيش؟! ٩٣
- المنـــزل ٩٥
- حلـم الغـروب ٩٧
- في الوقت الضائع ٩٩
- دلال عقـارات ١٠١

هذا الكتاب

عزيزتي..

صباح الخير، وبعد..

بما أنك جميلة، وجذابة، ورقيقة، فأنت بشكل أو بآخر، مسؤولة عن كسر ظهر كاتب هذه القصص المدعو: خطيب بدلة.

ولكي لا تشعري بالذنب، أسارع إلى إعلامك أن ظهر حضرته هش، وسريع العطب، إلى حد أن امرأة أقل منك جمالاً وجاذبية ورقة وذكاء، من شأنها أن تفعل به ما فعلت وأكثر.

وبالمناسبة فقد سألناه، قبل إصدار هذه المجموعة القصصية بأيام عن موقفه من المرأة التي كسرت ظهره، وكان ما يزال ضمن قوقعة الجبصين، عما يبيّت في نفسه تجاهك، فما كان منه إلا أن قال متوجعاً:

- بما أن الشغلة «صارت وصارت» أرجوك أن تنقل إليها تحياتي وشكري لما فَعَلتْ، فالمرأة التي تمر بالرجل ولا تكسر له ظهره لربما تكون أنوثتها ناقصة.

أحدهم

دار الينابيع للنشر والتوزيع
دمشق هـ ٤٢٨٤٦٨ - ٣٢٤٩١٤
الينابيع ص.ب (٦٣٤٨)